مكتبة نوميديا 234
Telegram @Numidia_Library

رواية

# يوميّات روز

ريم الكمالي



دار الآداب

يوميَّات روز

ريم الكمالي

# يوميَّات روز

رواية

دار الآداب ـ بيروت

يوميّات روز
ريم الكمالي / كاتبة إماراتيّة
الطبعة الأولى عام 2021
ISBN 978-9953-89-714-1

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

**جميع الحقوق محفوظة**. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيٍّ جزء منه، أو تخزينِه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلِه بأيّ شكل من الأشكال، من دون إذن خطّيٍّ مسبَّق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Daraladab @Daraladab daraladab.com

# 1

في قلعة زوجي وأمامَ النافذةِ العتيقةِ المُمتدَّة من الأرضِ إلى السَّقف، هَبَّ نَسيمٌ جَبليٌّ مُصفّى سيطر على وجهي وأنا أجلسُ مُتربِّعةً مُستسلِمةً وفي حضني دفترٌ فارغ، وأبدأ في الوهم كعادتي في تلك المساحات الزرقاء الضائعة في المَدى، أرى تموُّجاتِ الماءِ كالسرابِ في خطِّ الأفق، والشفقَ الأحمر في انتشار لضمِّ السماء بالأرض، ولوهلةٍ لاحَ لي جبل جيس الضخم مُحلِّقًا برؤوسه الرماديَّة القاحلة حتى قبع في جُلْفار إلى الأبد، مُشتِّتًا ذلك المسحوق الإلٰهيّ الأحمر الذي كاد أن يلثمَ خَدَّ مملكة جُلَّفار الحنون وقت الأصيل وهي ترسل السمنَ والجبنَ إلى جزيرة قيس، ليكفَّ الغرام عن الغرام بعد أن أوشك الشفق على الدنوِّ من جُلَّفار ومن خليجٍ صافٍ توغَّل في مضيقٍ بفمٍ شحيح، فكان الوداع

لحضارة جُلَّفار التي غرقت عشقًا على مدخلٍ جانبيّ، ومنذ ذلك اليوم لم يَحنَّ على قيس أحدٌ. فيا لجيش الحارس الجبليّ المهيب اللئيم الذي بجلوسه منع اقترافَ ولو شيءٍ من عَمى الشغف. لكنْ لم ييأس الشفقُ الأحمرُ وهو السلطان العاشق في الفراغ، فقرَّر بَسط لونه على الرمال كعلامةٍ تُشكِّل الأراضي الحمراء والجزيرة الحمراء، ويظلُّ لون العشق هناك مُتورِّطًا ومَذهولًا إلى الأبد.

# 2

حين يُغلِّفني السكون كعادتي أؤلِّف في رأسي حكاياتٍ وقصصًا عن طبيعةٍ وبشر، وأنسى زوجي التسعينيّ المُتَّكئ على الجدار خلفي ككومة، بسيفه الفارع ولحيته الطويلة البيضاء. . . وأمسك القلم لأكتب ما توهَّمتُ للتوِّ، لكنَّ الاحتقان يغلبني، يعصرني حتى يتوقَّف القلمُ في يدي حين أتذكَّر كم مزَّقت دفاترَ ممتلئةً بحكايات كلٍّ من حولي، حكاياتٍ تضمُّ أحداثًا كاذبة وخيالًا من هذرٍ يدعو للذهول، دعتني الرهبة إلى إتلاف يوميَّاتي من أجل النجاة بنفسي خشية اتِّهامي بالمسِّ لِما احتوته تلك اليوميَّات من كتاباتٍ وتفاصيلَ ملتويةٍ عن كلِّ ما رأيت، وبمخطَّطاتٍ لحظيَّةٍ تأتيني بلهفةٍ وعلى قياس طبيعةٍ من حولي، كما احتوت جداولَ وصُورًا وعلاماتٍ ووشومًا وزخارفَ وهيئاتٍ لا يمكن تحمّلها.

كان الضوء حُلوًا وهو يمرُّ في مسارات النافذة، ينسلُّ مع رياحٍ متموِّجةٍ ومُنعشةٍ بعطر أفلاج نخيل قرية ضاية برأس الخيمة، رياحٍ تُدغدغ ضوء بشرتي، تجعلني أسرح بدفاتري حتى يراودنيَ شعورٌ غامضٌ ومؤرّق: ماذا لو لم أكتب كلَّ تلك الحكايات المتلفة؟ ماذا لو لم أخطّ بقلمي نثريَّاتٍ وهميَّةً أطبطب على قلبي ولو بالتنقيط على سطور الورق؟ ماذا لو لم أرسم ظلالًا لطلاسمَ مُجنَّحة؟ ماذا لو لم أستخدم خيالي ولغتي لأحوِّلهما من واقعي المرّ إلى أدب؟ ماذا لو لم أُكمل كلَّ تلك المشاهد المبتورة والحكايات الناقصة أو لأغيِّرها كما أحبّ؟ ماذا لو... وأنا في ارتحالٍ إجباريٍّ دائمٍ كأنثى، ماذا لو؟ بلا شكّ لجُنَّ جنوني.

# 3

تَحرَّكَ زوجي الهامد قليلًا، لأتنهَّد مُستسلمةً، فقد طال العمر به، فهل دخل عصرَ البقاء ونسيَه الفناء؟ أم غفل عنه القبر بعد اقتناصي والزواج بي؟ لقد ابتعد عنه الاحتضار منذ فوزه بإرث الحصن من العشيرة وإن تَكوَّم الخرابُ في شطرٍ منه. هو الزمن لا غيره يترنَّح ثملًا عند زوجي، بقي بقربه ليسانده، وإن صحا الزمن هذا من سكرته سيأخذه بلا شكٍّ في شهقةٍ واحدةٍ إلى عالم آخر، لكنَّه ظلَّ مُنتشيًا، وطاب له العيش في زوجي حتى أصبح هو والزمن سيّان، يخوضان الحروبَ سويًّا بين لعبة الانهزام ومزحة الانتصار، إلى أن أتى الحصن والحصنُ أتى بي، بينما الزمن النشوانُ بقي كما هو قرب زوجي في القلعة، كالوهم العزيز الأنيس يقبع مخمورًا بجانبه.

# 4

لم أكتب شيئًا أمام النافذة، حتى اقترب سربُ العصافير نحوي، وإذا بي أغيب عن سقسقاتهم، وأتذكَّر بحسرةٍ تلك الأيَّام القليلة التي وضعتْ حدًّا لمستقبلي، ومنذ تلك الليلة التي رأيتُ فيها حلمًا بأنَّني سحابةٌ ليليَّةٌ حَيْرَى تتنزَّه سُدًى برفقة الريح النكباء ذات الصوت الباكي، لتأخذني معها في العتم، نزحف معًا بين ريح الصَّبا وريح الشمال اللتيْن لم تتقبَّلانا. حزنت حينها، وبكيت مع النكباء ومضينا، إلَّا أنَّ الرياح كلّها لم تتركنا وشأننا. ثمَّة مُهرولون وراءنا وقبضوا علينا، وأخذوا يلملمون النكباء ويُصغِّرونها لتهمد وينادون عليها بالنُكَيْباء تحقيرًا، وضمَّتني معها أيدي الرياح لتلعب بي، ولكنَّني أعرف نفسي تمامًا حتى في أحلامي ومنامي، أعرف بأنَّني لم أُخلق لأخاف أو أكفّ عن الجرْي، كنت

مُشتعلةً في السماء نشاطًا وقوَّةً، مُتحرِّرةً من كلِّ الرياح رغمًا منها. هبطتُ الأرض، وبقيتُ محافِظةً على التاء المُلتصقة بالأنثى. ألم يقل قدماء العرب: التاء دلالة الفهم والعلم، وهي تاء القسم، وأنَّه... تالله، إنَّهم لا يُقسمون إلَّا بشرف الأنثى. وسوف أبقى التاء المنطوقة مِن وفي طرف اللسان والثنايا العليا رغمًا عن الواقع المُرِّ، لأنَّني تاءٌ رقيقةٌ تُلفظُ مهموسةً من الخجل.

# 5

وجدتْ دمعتي منفذًا للذكرى في موطن أمِّي ـ الشارقة، وقبل أن أغفو على مخدَّتي قرب النافذة المانحة لكلِّ هذا النسيم العليل، أعود بذاكرتي إلى مدرستي في 1969 م، عام وفاة والدتي الأربعينيَّة الشابَّة بعد أسبوعيْن فقط من اختباراتي الناجحة، ليتبدَّل مصيري في ذلك الصيف، وعِوضًا عن السفر مع زميلاتي للبعثات الدراسيَّة المقرَّرة لعواصم عربيَّة تحتوي جامعاتها على تخصُّصاتٍ مُقترحة، غادرتُ بعد أيَّام العزاء «خان» الشارقة برفقة عمِّي إلى «حيّ الشندغة»، أعرق حيٍّ وأقدم مجتمعٍ في دبي، إلى بيت العائلة الكبير الصامد والمزدحم بالزخرفة وفنون السلف، ماضيةً إلى مقامي الأبويّ، فلا خيار بجلوس فتاة في منزل أخوالها بعد وفاة والدتها، وبيت والدها وإن كان متوفِّيًا ظلَّ مفتوحًا لها على مصراعيْه، هي الابنة العزيزة على قلوبهم.

# 6

أخذني عمِّي معه، ولم يكن مهمًّا أين أعيش، ولوعتي المختنقة نشبت في حلقي بعد حرماني بعثة الدراسة! خرجت بشعري القصير الأسود بمقصٍّ فرنسيّ أنيق، وقميصي الحريريّ الأصفر، وتنُّورةٍ قصيرةٍ ممتدَّةٍ بسوادها من الخصر إلى الساقيْن، وحذاءٍ مرتفع، ورأسي مرفوعٌ بمزاجٍ مستورٍ ووقارٍ ظاهر، مغادرةً أرض البطن إلى أرض الظهر، من أرض الأخوال إلى أرض الأعمام مع عمِّي الشابّ الوسيم الصامت المتأصِّل في تجارته الموروثة والمُتجذِّرة أبًا عن جدّ عن سلالةٍ عن مجد، بحفظه الأدوارَ والأفعالَ لكلٍّ من رحل من التجّار «الدبويّين» من آبائه إلى البحر والإبحار. وضع حقائبي في الخلف، وجلس بجانبي؛ وما إن تحرَّكت السيَّارة حتى أدرت رأسي نحو النافذة الزجاجيَّة الخلفيَّة، حيث

خزرت بعينيَّ السورَ الحديديّ القزم الراعي لحقائبي الحُرَّة، المحفوظة من الإفلات في تلك الساحة الصغيرة المحدودة لسيَّارة «الوانيت» المكشوفة على غيوم عابرةٍ كحكاياتٍ بلا معنى. ارتجفت الأمتعة، فلمحتُ أصغرَ حقائبي والتي وضعتُ فيها كتبي ودفاتري ويوميَّاتي الوهميَّة، تهتزّ معها الحقائبُ الشبيهةُ بحيوانات الرعي حين تأخذ طريقها المرتعش نحو القصاص.

# 7

طوال سنوات دراستي في المدرسة، لم يدهش المعلِّمات والتلميذات أحدٌ كما أدهشتهم بتفوُّقي اللغويّ تعبيرًا وتأليفًا ومناقشة، ولا غرور، إلَّا أنَّني أذهلتُ كلَّ ضيفٍ وزائرٍ لمدرستي بإلقائي عليه خطابًا ترحيبيًّا رصينًا خاصًّا به صغته بمهارتي، ولا غرور، لأنَّني لم أفكِّر حتى في لحظات الكسل بتكرار الخطاب، فلكلِّ زائرٍ وهجٌ وحديث. لا غرور، فقد حيَّرتُ أخوالي في منزلهم وأنا ما زلت في سنتي الثانويَّة الأولى، أُصحِّح لجدِّي قصائدَه وخطاباتِه! فهل أفقد برحيل أمِّي الحقَّ في دراسة الأدب العربيّ؟ وكما كان مقرَّرًا لي في ديوان الحاكم، حيث أكَّد لي الموظَّف هناك حجزَ مقعدي في جامعة دمشق. ها أنا الآن أترك «الخان» المصطاف على مسيرة الساحل على بُعد ميليْن جنائب غرب الشارقة، وبصحبة

عـمِّي، وفي وقتٍ غير مقترح، ومن دون عرض للحوار كمكرمةٍ لي، أو لِما أملك من حسٍّ أدبيٍّ، مصطحبًا إيَّاي مع حقائبي التي جُهِّزت في حينها. أترك «الخان» مودِّعةً ذكريات منزل والدتي وأخوالي بعد نسجهم قرار عودتي الموجع. وكم كان حزني شديدًا، وأنا أتوهَّم قبل خروجي عند الباب! فثمَّة روحٌ دنت منِّي، روحٌ ذات قدرةٍ غير مرئيَّةٍ، كأنَّها ظِلٌّ أوشك أن يلامسني. وقفتُ حينها، وحرَّكت رأسي ببطءٍ باتِّجاه ما تجاوزني، فارتعدتُ. ولم تكن سوى روحي الكاتبة، أعرفها جيِّدًا، روحي التي لا تندسّ، فخرجت من عتبة الباب برفقتها ملتئمة.

# 8

بهدوءٍ، حسم عمِّي تلك المسافة دون لائمةٍ على تفوُّقي الأدبيّ، ولمَّح بعتبٍ بعد رصده الانفتاح بهيئة الحريم، ومنهنَّ أنا ابنة أخيه روزه، مُعرِّضًا بملابسي العصريَّة القصيرة بنظرات الريبة المتعمَّدة، وبدهشة اللا يصحّ، بوصفي أنثى عربيَّةً دبويّةً معلومة الأصل والفصل مخبوءة الجسد. . . أو لأنَّني مجهولةُ الثغر، فلا يصحّ أن يراني أتحدَّث بلغة القوميِّين العرب وهيئتهم الغازية! كان الخوف ألَّا أتزوَّج إن أكملت تعليمي في الخارج، فأنا صاحبة سلالةٍ وثروة، وقد عيّا عليه أن يدعني أرحل مع النهضة العربيَّة الغالبة بحداثتها، والتي باتت جملةً مُخجلةً لدى رجال العائلة وأصحاب العادات التليدة. لم يرغب عمِّي بتوبيخي، فالإناث في عائلات التجّار عظيماتُ الشأن، وذات الشأن مآبها لأبيها وتقاليد بيته، ما جعل عمِّي

يصحبني معه، وتخضّني السيَّارة طوال الطريق الترابيّ بين الشارقة ودبي، وليس لي سوى الصمت. راودتني الدمعة كأمنية. أقسمت ألَّا أُسقطها، مقاوِمةً لوعتي من رفض عمِّي إكمال دراستي، وكأنَّه بموت الأب وموت الأمّ يتغيَّر المصير، إن كان في ملابسَ تقليديَّةٍ أو عصريَّة، وسواءٌ في زمن النهضة العربيَّة الولود على ساحلٍ متصالحٍ يُطلُّ على خليجٍ مُتمرِّد، أو في نهضةٍ مدسوسةٍ وهمًا بيننا، أو لعلَّها نهضةٌ متوثِّبة... وكم أخشى أنَّها نهضةٌ مُرتجلةٌ بحمقٍ دون اكتراثٍ. سُحقًا للنهوض الذي هو أصل المعارك في كلِّ عصر!

# 9

منذ طفولتي أتحدَّث سرًّا مع ظلِّي، أُسائلهُ بحرقةٍ عن أفرادٍ لا أحدَ يعرفهم سوانا. ويومًا من أيَّامي، تقدَّمني إحساسي أثناء الحديث معه، لتأتي دمعتي اللامعة على عجل، فصمت ظلِّي ولم يتحرَّك. خجلت حينها منه، لكنَّني كنت كلَّما شعرت بهيمنة الدمعة زادتْ سيطرتي قُدرةً وقوَّة، إلَّا هذه الأيَّام البائسة التي استعبرت فيها الكثير من الدموع، بعد أن تسلَّل نشيجُ التوديعِ عليَّ بأنواعه، من توديع مدرستي والمناهج، وتوديع معلِّماتي، والأنين على احتضار والدتي، واللحاق بنحيب فراقها، وأخيرًا لوعتي: عدم سفري صُحبةَ زميلاتي... زادت دموعي فغادرني ظلِّي، ولم تعد تلك الخصوصيَّات بيننا؛ ولأنَّ الظلَّ حمايةٌ وحضنٌ، كان لا بدَّ من إحضاره.

ما الآتي بعد كلِّ هذا الأسف؟ لقد بذلتُ للأدب الكثيرَ، قراءةً وكتابةً ومشاكسة، لإيماني بأنَّني فتاةٌ غير قابلةٍ للاختفاء، وإن اختفى ظلِّي. فأنا من وطنٍ سالَ من رأسي حبًّا. ومع ذلك، نظرتُ إلى الأشياء حولي كغريبةٍ أتت من بعيدٍ لتكتشف آفاقَ المكان بغية تأليف المستحيل، حينها أقسمتُ لظلِّي الغائب ألَّا أبكيه مطلقًا، أن أُبْدِلَ دمعَ قلبي إلى حبرٍ أخطُّه في يوميَّاتي السرِّيَّة، وأتحوَّل في ظاهري إلى خرساء، لأمنحني صفة الرزانة، ويبقى اسمي روزه على مُسمَّاه ومعناه من رزانةٍ ولياقة، بينما الأنا تعانق عالمي الخاصّ.. فتعالَ أيُّها الظلّ ليتجلَّى قلمي الذي لا يُبالي سوى بسلطتي الخفيَّة، وليحدثْ ما يحدث في بياض الورق، فمصير ما أكتب الطمسُ والإعدامُ رميًا في خور ماءٍ لم يعد ضحلًا.

# 10

وصلنا إلى الطريق الجافّ قرب الندّ عند أوَّل حدود دُبيْ، حيث كان يلتقي التجَّار من الإمارتَيْن المتجاورتيْن للوقوف وتبادل البضائع المُحمَّلة على الحمير، والتعامل مع حركة أسعارٍ مسموحةٍ لما في حوزتهم. وقبل أن يداهمني السكون، أطبقت جفنيَّ أمام نافذة السيَّارة الزجاجيَّة نصف المفتوحة، فتحرَّرتِ الألوان من لون عينيَّ المغمضتيْن، لأرى في إغماضتي ريحَ العافور التي تأبى أن تأتي من الاتِّجاهات الأربعة. كانت هابطةً كعادتها من العلا كدوَّامةٍ عموديَّةٍ شديدةِ السرعة، مُقتلِعةً الأشجار الحمقاء والمنازل الخاضعة لتُلقي القبض عليَّ، وتُخرجني من السيَّارة وتضعني في غبارها. وتعاليْنا سويًّا حتى أسقطتني على الساحل أمام شجرة عائلتي الشاهقة بأغصانها الطويلة. نفضت ملابسي من هباء الغبار،

لأنتبه إلى أوراق عائلتي القلقة بين الأغصان وهي تتباهى بأسماء الآباء في سلالاتٍ ذكوريَّة الاشتقاق، ويُضيء الاسمُ في كلِّ ورقةٍ بتحديد قيمته بين ملَّاحٍ وتاجرٍ وأميرٍ بحريّ. كلّهم أجدادي، فأين جدَّاتي؟ تعبتُ من البحث لأجدني مُستندةً عند جذع شجرتي بحضوري الأنثويّ صوتًا ووجودًا لعلَّني أسكنُ ورقةً. يستيقظ عمِّي ويخرج من الـ «وانيت» طائرًا كالصقر قادمًا ليقتطفني من شجرة العائلة قبل أن أسكن ورقةً، قفز قلبي فقطفت على عجلٍ ورقةً من غصن آبائي. ضممتها في كفّي قبل أن يُحلِّق بي عمِّي، وأمام انتشار زميلاتي وهنَّ يرتفعن في فضاء الطريق لإكمال دراساتهنَّ، وبأجنحةٍ من كتبٍ مع ريح «الباه» الآتية من نجم الجاه في مسافاتٍ بلا غبار، بينما يطير بي عمِّي نحو منزلنا في حيِّ الشندغة ونهبط في فِنائه، وأنا بكامل حُسني وأناقتي، وفي يدي ورقةٌ خضراءُ من دون اسم.

# 11

ولجتِ السيَّارة حدودَ دُبَيْ، لأنتبه وأفتح عينيَّ بعد ما لاح لي من صُوَرٍ ساخرةٍ رافقت مخيِّلتي طوال الطريق. أيقنت أنَّ عليَّ التوقُّف الآن، والصبر على ما اعتدت عليه من تربيةٍ مُتأصِّلةٍ وراسخة، وأن أدرِّب روحي على الصمت كما وعدت نفسي، منذ الانتقال الأوَّل في طفولتي مع والدتي إلى منزل أخوالي بعد وفاة والدي، وإلى اليوم وأنا في حالة انتقالٍ بين الإمارتيْن، ولا بدَّ من انتقالٍ آخر بين البيوت والمدائن، بوصفي تاءً للستر والارتباط.

منذ طفولتي المتأخِّرة، لم أجدني سوى مغامِرةٍ في انصرافي الدائم إلى يوميَّاتي، وكأنَّ الصفحاتِ البيضاء براءةٌ زائدةٌ تناديني لأملأها هفوات، وأحشو هوامشها بالشدائد والتهم، وأحوِّل كلَّ قصَّةٍ واقعيَّةٍ، وإن كانت مُضيئةً، إلى

عبثيَّةٍ بأحداثٍ ونهاياتٍ مدسوسة. أكتب سلوكَ مَن حولي كحكايةٍ تُروى مع تعمُّدي خدش كرومهم وهمًا لعلَّها تسيل كالسكَّر، وأنا أُشكِّلهم أبطالًا في أحوالهم الغافية، ولاقتناعي لو أنَّ الزلَّة ما اختالت وتمادت وتمايلت بين السطور، لما تفنَّن الإنسانُ في خلق الأحداث، ولما خضعت آداب الدنيا للعلامات المرفوعة. ومن الجيِّد أنَّ أغلب أوقاتي رائقة، ففي حالاتي المطفأة أملأ حواشي يوميَّاتي أشكالًا هندسيَّةً وورودًا، لتضجَّ الصفحة بلا هوادة حتى أهدأ.

# 12

توقَّفت السيَّارة بجانب رصيف الخوْر المُمتدّ في غرب الأفق، في جهةٍ جنوبيَّةِ الرياح، حيث حيّ الشندغة المجاور للخور، بكلِّ القاطنين من عرب دُبَيْ، إذ لم يُسمح للهنود بالإقامة في الحيّ، ولا للبلوش أو الإيرانيِّين ولا الآخرين، كلّ هؤلاء كانوا يقبعون في منازلَ بسيطةٍ في ديرة. حملتُ حقيبة يدي الصغيرة التي أَثبتُّ حبلها على كتفي، تاركةً بقيَّة المتاع على السائق، مُتوجِّهةً مع عمِّي إلى حيث منزلنا الرحب والضخم ذي الخمس عشرة غرفة، بأبراجها الهوائيَّة الصاعدة من ستِّ غرف. كانت عودةً إلى أملاكي بعد زياراتٍ مُتقطِّعةٍ في أعيادٍ ومناسبات.

يُمسك عمِّي المعروف نسبًا يدي مستعجلًا خطوي، يريد دسِّي في البيت هربًا من نظرات الناس، يُحدِّق في ملابسي

كلُّ من يراني، وأُحدِّق في منطقة «الراس» المزدحمة هناك في الضفَّة الأخرى من الخوْر، تمامًا كما يزدحم الرأس بالأفكار، فتنغمر حواسِّي المرهفة من دون سيطرةٍ، مع الإصرار على النظر إلى تلك الجهة حيث الرصيف المتواضع للمراكب الصغيرة، والعبَّار يعبر بركَّابه بالمجّان، فاليوم جمعة، وهو يومٌ من الأيَّام الذي تتنافس فيه الشهامة والكرم. وإنَّه لمن المؤسف أنَّني لم أغب في خيالي اللذيذ، لأنَّني كنت أعي أبجديَّةَ الأصوات كاملةً حولي أثناء دخولي الزقاق، أمواجٌ ناعمةٌ للخوْر وصخبُ النوارس، ولم أفلح في تكريم نفسي ولو بوهم صغيرٍ من الأوهام التي تأتي بأثرٍ فيما بعد على ورق اليوميَّات.

# 13

انتهى الطريق، وما زلت أقاوم كي لا تذبلَ همَّة الأشباح في رأسي، فمهما كان المكان ساحرًا يبقى السهو مسؤولًا عن زاويةٍ قلقةٍ لم تؤرَّخ، إذ منذ ولادة الإنجليز على سواحلنا بسَيرهم على شهقات اليابسة، وهم يختبرون قوَّةَ إبحارهم في سفنهم الضخمة، ويحرِّرون شهوتهم على منازلة الموت فينا حتى يُطوِّقوه بنشر أثقالهم، فينبسطون لانتزاع المسطَّحات المائيَّة والجزر تباعًا، ويتخلَّصون كلَّما ضجروا من أصحابها، وما أكثر الحكايات الموروثة في هذه الزرقة التي لم يكتبها أحد!

أتقدَّم في خطوي. تختلط أفكاري وتتشعَّب القصص من دون أن أثبتَ على أخبارها. ومع ذلك، لم أقطف أيَّة أقصوصةٍ وهميَّةٍ يانعة، مسترجعةً بحزنٍ سنواتِ تماريني

المدرسيَّة، وقلمي الذي أشعل مرونتي اللغويَّة وبلاغتي الإبداعيَّة دون مريَّة، ودهشتي من نفسي إذ كيف أصابني عشق التأليف من دون كلِّ مَن حولي، منذ تلك الابتدائيَّة في مرحلتها القدريَّة. كان يجدر بي إكمالُ تعليمي الجامعيّ والدراسات العليا لأوثِّق أحوالًا نُقِلَتْ على شفاه ورثة السلف لم تكن على البال ولم تَعد، بينما أنا الآن لا أفعل سوى الكتابةِ ومحوها، بوصفي «حُرمة» والتوثيق مهمَّة الرجال!

# 14

في منطقةٍ حيَّةٍ ومُكتظَّةٍ بجانب لسان بحرٍ يُلقَّب بالخوْر، لسانٌ يقتحم ديرةً قد تشكَّل في يومٍ جيولوجيٍّ بعيدٍ لا أعرفه، ربَّما بسبب زلزالٍ بحريّ، لتغدو منطقة «الراس» كالرأس الليِّن في خليجٍ داخليٍّ صغيرٍ دافئ، يطيع ديرةً ويلعقها على الدوام. وكَم قال لي الراحل جدِّي الشاعر: كلُّ خلجان العالم عرفت التمرُّد منذ أن تمرَّد الخليج من المحيط وتوغّله في اليابسة، وانتفاعه من الغرباء إلى أن انتهزوا لغتهم الطيِّبة، مُستغلِّين التعاطف الظاهر لنحيب «اليامال»، ووجْدَ الفراق، وسهوَ ترانيم النهام أثناء رفع الأشرعة، إنَّه الخليج يا صغيرتي!

كنت أعود دومًا لأسأله:

ـ وأين يا ترى فم الخوْر يا جدِّي إنْ كان هذا لسانه؟

«كانت المنازل يومها يا ابنتي تُعدُّ بالعشرات، ومنذ أن كنَّا في عمر الشباب الأوَّل ونحن نرى ذلك الحانوتَ قرب المسجد الكبير، في الطريق ذاتها لخرائبَ يُقال إنَّها بقايا برتغاليَّة، وآبارٌ عذبة الماء تشرب منها القبائل وجميع العائلات من أتباع المذهب المالكيّ، حتى سور ديرة قبل الاكتظاظ خلفه والبناء بقربه، والقضاء على قُطَّاع الطرق بعد مراقبتنا لهم من فوق برجٍ مُربَّعٍ للمراقبة، وبناء برجٍ بعد برجٍ، ومنذ تاريخ فَقْدِ المفقودين على هذا الساحل الذهبيّ...».

كان جدِّي يحكي ويبتسم بشاعريَّة، كشاعرٍ تجاوز القافية بالتأمُّل نحو كنزه الشفهيّ لدُبَيْ ـ إمارة التجَّار والعائلات الحضريَّة المنفتحة؛ وبصوتٍ خفيضٍ يليق بشاعرٍ عاشقٍ لكلِّ ما حوله، كان يهمس بإحساسٍ لطيفٍ ونغمٍ عذبٍ وهو يجنح في وصفه دون حدود، مُتنقِّلًا من معنى إلى معنى، ومن عنوان إلى عنوان بين ضوءٍ وعتم.

# 15

اقتربتُ برفقة عمِّي من منزلنا الرحب، عازمةً على ألَّا أُظهِر معرفتي أمام الآخرين إلَّا قليلًا. لا أختلف مع أحدٍ في طرحه، فكلّ ما يُقال مُجرَّد كلامٍ لا يُغيِّر شيئًا، كلّها ترّهات مهما قال وقالت، يبقى القول البصير في معناه بعد توثيقٍ وكتابة، وهذا من النوادر في ساحلنا بطوله، فالبقاء للمناطق الشعبيَّة بنشاطهم في هذر الموروث، وبتفسيرهِ وحشْوِهِ بعد إعادةٍ وترديد، حتى باتت في أذنيَّ أباطيلَ لا نهاية لها، وعليَّ ألَّا أنسى بأنَّني امرأةٌ، والمرأة تنتمي إلى كتبٍ ميِّتة، ولا أمل إلَّا للبقاء على الخَرَس كحِرزٍ لي.

أتاني صوتٌ خافِتٌ من سيِّدةٍ جارةٍ زائرةٍ لمنزلنا. إنَّها امرأةٌ طيِّبةٌ من اللائي يأتين البيوت، ويعاودنها كلَّ يومٍ بين حضورٍ وقهوةٍ ومذاقٍ من قهقهة. رأيتها من بعيد تشهق بسعادةٍ لتناديني:

بنت التجَّار!

ابتسمتُ لها وأنا أطوف الأوهام مع نشوة الألقاب والكنايات، وأتنفَّسني كسيرةٍ ذاتيَّة المكانة. فمنذ القول المبهم لذلك المجهول الراحل: «اللهُ خلقَ وفرَّق» ينتهزُ كلُّ كسولٍ ليوثِّق هذا القول الغامض، ويبتلي الإنسان. وكان يا مكان. ومنذ أن كنت طالبةً في صفِّي المتوسِّط. فقد تمَّ تتويجي بلقب تشريفيّ «روزه ملكة الأدب» ثم كان ذلك علنًا وبيانًا وفخرًا في صفِّي الثانوي بـ «روزه أديبة المدرسة»، أمَّا اليوم وبوصفي فرعًا أنثويًّا منتهيًا في بيت والدي، أنال كنية «ابنة التجَّار»، وغدًا بعد زواجٍ وإنجابٍ، سأُكنّى بـ «أمّ فلان»، وتمضي بي الألقاب من المعلوم إلى المجهول!

# 16

خرجتُ من خيالاتي الأسيرة وأنا على حالي الصَّموت، وقبل أن أدخل الباب وأصبح الفتاة الطليقة على الورق، والبكماء أمام أسرتها، توهَّمتُ من جديدٍ وأنا أنظر إلى الجهة الأخرى لمنطقة الشندغة، حيث منطقة الراس، وأعطف في حيني لأُحلِّق بيديْن مفتوحتيْن كجناحيْن مسافريْن وهمًا فوق الرؤوس كلّها، وأرى ذروة كلَّ شيء.. من رأس برج الهواء، ورأس الزاوية المزخرفة لهلالٍ في جصٍّ، ورأس الجمل أمام سنامه في رمالٍ بعيدة، ورأس القلم الذي أخرجته من حقيبة يدي الطائرة معي. وحين نظرت من الأعلى إلى المُشاة في الزقاق، كانت الأجساد يتسيَّدها رأس، فجارنا هناك صاحب رأس المال، ومجازًا كان والدي في رأس المكانة، والآن عمِّي رأس الغموض، وزوجة عمِّي رأيها في رأسها، وجدَّتي

يهمُّها رفع الرأس والسمعة، والجميع يريد أن يبقى هذا الرأس عاليًا! وتستمرّ حكاية الحمقى مع الرأس الأخّاذ بشمال الجسد، أليس الشمال أجمل من الجنوب؟ والشمال دائمًا على ما يرام، الشمال البارز، ولا تهمُّنا الأقدام وما نسحق بها؟ فليحيَ الشمال الغنيَّ ويهلك الجنوب الفقير، الشمال الأبيض والجنوب الأصفر. . رأسٌ عطرٌ مُغطًّى بالذهب، وأقدامٌ نازحة في حذاء. ولا بدَّ لي الآن من هبوطٍ وإزالة الوهم، فخيالي غاضب.

# 17

قبل صعودي عتبة الدار، عدت بذاكرتي القصيرة إلى الوراء قليلًا. ما الذي رأيته قبل قليلٍ هناك حيث الجدار المُجانب لنا؟ يفترش رجلٌ فِراشه، هو المجنون والمُكنّى بسعيد كافر. وكما هو منذ سنواتٍ بين النوم والاتِّكاء، تارةً مُتَّسخًا وتارةً نظيفًا، بعينيْه المليئتيْن بما لا يُطاق، صرخ حين رآني بالمفردة ذاتها التي يُردِّدها على الجميع منذ سنوات بتعجُّبٍ هائل:

حقًّا!

تأمَّلته، فمنحني طرف عينيْه وهو مُتعرِّق، ثم خزرني قليلًا حتى نظر بلامبالاةٍ إلى حيث الجدران العالية للمنازل، لتتناسل في ذهني حكايته المجهولة. هو المنتمي إلى ضفاف الخوْر، بعد أن هجر منطقة «بوهيل» منذ سنواتٍ بعيدة،

حدَّقتُ فيه بعنايةٍ، واحتفيتُ به في قلبي وخيالي، ليسكن يوميَّاتي يومًا ما.

يا لمنزلي الواسع الذي تُخفِّف فيه حزني قليلًا أصواتُ عصافيره وهي ترتِّل نذورها، مُغرِّدةً بأعلى ما لديها، ليصبح صداحًا وضجيجًا طوال النهار فوق أغصان شجرة اللوزة السمينة الممتلئة بالعاطفة! أحبُّ الأحاديث الصاخبة في غرفة جدَّتي التي لا تهدأ، ضحكٌ هناك، مع رائحة الطهو الطيِّب، وصوت الأواني ومسرَّة الحركة، وانتقال الأجسام في مطبخٍ كبيرٍ بفِناء بيتٍ مهيب. هنا، سيقفز قلبي الصغير وراء المشاهد، ومتعة التحليق للتحكُّم بأفراد البيت من خلال المفردات.

# 18

حيَّتني عائلتي المجتمعة، وعزاءٌ متأخِّرٌ يتجدَّد، ومواساةٌ من جدَّتي وعمِّي وزوجته. تحدَّثنا طويلًا حدَّ الملل. ملأت المواعظ رأسي، مواعظُ معظمها تقول لي إنَّني أنرتُ داري، وإنَّهم سيأخذون ما في حقائبي من ملابسَ عصريّةٍ جارحةٍ لتقاليدنا، فقد ادَّخروا لي ملابسَ جديدةً تعود لزوجة عمِّي الشابَّة التي لم تلبسها قطّ، ملابسَ من أقمشةٍ منوَّعةٍ، من قطنٍ وحريرٍ، مطرَّزةً كلّها ببريق التراث وزخارف الطبيعة وفق أشكالٍ وألوانٍ ذات مُسمَّى واحد «كَنْدُورَة مُخَوَّرَة وثُوب»! وتبدو كما أُلصِقَ بها، تليق بابنة التجَّار. منذ ذلك اليوم، لم أرَ أيَّة قطعةٍ من ثياب عصر النهضة العربيَّة. وبهدوءٍ ظاهرٍ وهيئةٍ رزينةٍ، دخلتُ عالمي في لعبةٍ مستديرةٍ، لعبةٍ أشبه برياح «النعايات» التي تنعدم قدرتها على فعل شيءٍ، لتُصدِر أصواتًا تُشبه النُّواح وهي تنعى انقضاء الشتاء، فأنعى معها وأغيب عَمّن حولي.

# 19

كانت ظهيرةً متعبةً تقطَّعت فيها خيالاتي وأنا أمتطي مسيرتي، وأعبر الرواق الطويل المزدان بنوافذ جصِّيَّةٍ ملأها جدِّي يومًا بالزخارف الحيوانيَّة والنباتيَّة والهندسيَّة والكتابيَّة التي سكنتْ طويلًا ذاكرة طفولتي وبراءة عينيَّ، تاركًا لنا منزلًا غنيًّا بفنٍّ زخرفيٍّ، وبأمرٍ من حسِّه الشعريّ، ليترحَّم عليه كلُّ من يرى بيتنا من الداخل المُحاصر بالنقوش في كلِّ كلسٍ أبيض مطبوخٍ ومعجونٍ على الجدران والسقوف والشُّرفات، من وارش كالأنامل، وأقواسٍ مراوغة، وركنيَّاتٍ مُتلهِّفة، إلى النوافذ وفتحات الليوان، وثقل الأبواب وخفَّة المصابيح، عالمٌ من المفرغات أحببته وتأمَّلته على الدوام، كانت مُكافأةَ الحياة للعيش في طفولةٍ مزيَّنة.

ما إن دخلت غرفتي حتى استلقيْت فوق سريري الموروث

من والديَّ، سريرٌ ذو خشب هنديّ عملاقٍ بأعمدته السمينة أسفل برج الهواء، وقد شعرتُ لوهلةٍ أنَّ الحياة أصبحت كسلى، أو لعلَّها اللامبالاة سكنت الروح في تلك الوهلة! شهقتُ حزنًا في تقلُّبات نوم العصر وأنا استفيق على الأذان الصادح بصوتٍ عَطِش، ونور السماء يتراخى في المدى البائن الورع، بلون ضوئه الوافد من سقف بارجيل الهواء المفتوح على الجهات الأربع. داعبت غيوبُ الثريّا وجهي بهوائه الصيفيّ الخبيث الآتي من عنقودٍ نَجْميٍّ ساخنٍ مفتوحٍ على السماء بمنازله، تعبره الرياح على غفلةٍ ليأتي معه السعال والزكام، وأتدارك بغطاءٍ ناعم. تثاءبتُ بشدَّةٍ حتى ذهب النور من عينيَّ، وغادرتني كلُّ التفاصيل المزخرفة.

# 20

يزورني طيف مُعلِّمة اللغة العربيَّة، ولَكَم كانت تزورني وأزورها في بيتها لنتبادل أحاديث الأدب، والكتابة وأجناسها، ومؤلَّفاتي من خطاباتٍ مدرسيّة، وعن مدى إمكانيَّاتي لأنتج فكرًا وشعرًا أو نثرًا! لم يتحقَّق شيءٌ من هذا على الرَّغم من قرب هذا الحلم من واقع عَيّا دَوري إلى دَور، أَوقَدتُ الكهرباءَ في شعلتها المُعلَّقة، فأَطَّرَ النور سقفي وأرضي. كان جسدي مُنهكًا بعد نومٍ أشبه باقتراف، دفتري الصغير ممتلئٌ في حقيبتي بأفكارٍ وقصصٍ ملعونة. خفق قلبي، فمتى أرميه في الخوْر، بل في لسان الخوْر ليبلعه بلعًا؟ لا مهرب الآن سوى قبول روزه الجديدة، ولتكن يوميَّاتي ولوجًا حقيقيًّا في دنيا التأليف، شيءٌ من لياقةٍ إنشائيَّةٍ وفَكٍّ لحظاتٍ أُحقِّق وجودي في رواياتٍ تزدان بها رفوفُ قلبي، ولن ينهمر الزمن فوق رأسي، وإن لم أجد من يأبه بي.

# 21

كانت حقيبة ملابسي الوحيدة قابعةً في الغرفة، تلك التي لم يجدوا فيها سوى الكتب والدفاتر. سهرتُ أقرأ حتى الفجر، لأنهض في صباحٍ ضائعٍ وكسولٍ، يترنَّح فيه الهواء من برج غرفتي، يلامس وجهي وشعري القصير، وأسترجع حلمًا رأيته في تلك الإغفاءة القصيرة: زارني طٰه حسين الأديب المصريّ بنظَّارته الداكنة، كانت زرقاء تعكس غيومًا مُتحرِّكة، قال لي:

«اكتبي يا روزه، اكتبي ولا تكوني سوى نفسك».

أخذ يُعيدُ قوله على مسمعي وهو يبتعد رويدًا رويدًا.

كم سُعدت برؤيته وزيارته لي في أوَّل ليلةٍ لي في بيت أبي! لكنْ هيهات أن يكتمل الفرح، فقد قطع المجنون فرحي بصراخه، زاعقًا بمفرداتٍ ضائعةٍ دوَّنتها على الفور، كما صاح الديك، وكأنَّهما متَّفقان على إزعاج الشندغة كلَّ فجر!

# 22

تألَّق الشروق في قلبي بتألُّق ثوبي الزهريّ ذي القماش الممتدّ على طول جسدي، بخيوط التلي الفضِّيّ المزيِّنة أكمامي وصدري، ملقيةً التحيَّة على جدَّتي في غرفتها المفتوحة والمُطلَّة على زوايا المنزل كلّه، جالسةً في عرش سريرها تراقب من الباب المفتوح أمامها على مصراعيْه. كنت أجلس متربِّعةً بجانب زوجة عمِّي، وقد نسيت وعدي لنفسي بالخَرَس، لأبوح بحلمي سعيدةً:

ـ حلمت يا جدَّتي بكاتبٍ معروفٍ يقول لي كلماتٍ طيِّبة.

ـ هل هو رجلٌ صالح؟

ـ نعم يا جدَّتي.

ـ وماذا يكتب؟

ـ يكتب قضايا كبيرة.

ـ في الدين؟

ـ في الشعر والأدب، ويربط ذلك بالتاريخ والدين.

ـ وما الفائدة من حلمٍ كهذا؟ كأنَّكِ حلمت بشاعرٍ شعبيّ!

انتقلت جدَّتي بالموضوع إلى جهة التجاهل، لتنادي بصوتٍ عالٍ على إحدى فتيات الخدمة في المطبخ الخارجيّ، التي جاءت مسرعةً تَعدلُ حذائي المقلوب عند عتبة الباب. أدارت جدَّتي وجهها إليَّ من جديد قائلةً لي:

ـ «نعلاكِ يا روزه! تأكَّدي دائمًا أنَّهما غير مقلوبيْن، حتى لا ينقلب الحظُّ عليكِ، فيبدِّل سعدكِ شؤمًا. إنَّ في تعديل النعل احترامًا وتبجيلًا لوجه الله في السماء».

ـ «بأمرك يا جدَّتي» قلت لها، فأردفتْ قائلةً:

ـ أطيلي شَعرَك القصير هذا حتى يستر الله عليكِ يوم القيامة، وغيِّري مفرق خطّ الشعر من اليسار إلى الأمام، فهو خطُّ العدالة والاستقامة، اليسار هذا لا يجلب سوى الحظّ السيِّء.

ـ «بأمرك يا جدَّتي».

ـ أو دعي الخطَّ على اليمين، لأنَّه خطُّ المودَّة.

منذ تلك الساعة، علمتُ بواقعيَّةٍ ملموسةٍ أين أنا! وأيقنتُ أنَّ عليَّ التزام الخَرَس كما وعدتُ نفسي، فأنا حيث الذاكرة الماضية القابلةُ للتفسير، لأتربَّع بصمتٍ أمام الألبان الباردة، وصحون اللوز.

# 23

غيَّرت جدَّتي نبرةَ صوتها بعد صمتي وطاعتي المخادعة، مُكحِّلةً لغتها بشاعريَّةٍ عن زينة يوم ولادتي:

ـ «ما إن هوى الرأس من الرحم حتى هوى البَرَد في الفِناء. كنتِ فَرْحةً، غمرت الشندغة سعادة».

كانت تصف ذلك اليوم وهي تنظر إلى زوجة عمِّي مع الخادمة الجالسة بجانبهما، مُسترجعةً حكاية ولادتي التي ردَّدوها على مسامعي سنواتٍ طوال:

«يوم تساقط البَرَد في الشهر الأوَّل من عام 1952، وفدت روزه لأوَّل مرَّة، كفأْلٍ سماويٍّ. غمرتنا بقدومها، فاكتسى الفِناء بياضًا من حَبّ الغمام الخشن، وأحواض النحاس بجمراتها المُتَّقدة في الأركان، من الرِّواق وأبواب الغرف، وأعدادٍ من المشتغلين على خدمتنا كانوا أضعافنا».

أستمع لجدَّتي وهي تحاول أن تُشعرني بفرح الجميع بقدومي، كان أوَّلهم والدي الذي تخفَّف من حزنه على وفاة أخي الطفل ذي العامَيْن إثر لدغة عقرب.. لكنْ لا بأس إن أتيتُ أنثى، أملًا أن يأتي بعدي أخٌ يحمل اسمهم، فأنا وإن حملتُ اسمهم، لن يُستدلّ عليَّ في الأزمان المتتالية لشجرة العائلة.

بعد ولادتي، نذر جدِّي الشاعر إن أنا عشتُ وأكملت ثلاث سنوات ولم أمت، فإنَّه سيُخصِّص لي غرفتيْن في منزلنا شأني شأن الكبار، إحداهما ببرجٍ هوائيّ أصيِّف فيها، والأخرى من دون برجٍ هوائيّ أُمضي فيها الشتاء. وكم رأيت في هذا النذر دلالةً على حضارة جدِّي العاطفيَّة المنتصرة للأنثى مكانًا وزمانًا، لتبقى الغرفتان جاهزتيْن ومهيَّأتيْن لي حتى هذا اليوم!

# 24

كلٌّ من حولي نما شعوره بصمتي المُنغمِس في وجهي، فاكتسى حديثُهم لحظتها بلباقةٍ تليق بهدوئي المُضلّل، مُردِّدين مُصحِّحين بأسلوبٍ غير موجَّه بأنّي العاقلة لا الشرود، وبودٍّ ظاهرٍ أستأذنهم للاسترخاء بعد أن أخذ صمتي المتلاعب يستمرَّ.

دخل المنزل شقيق زوجة عمّي، وكم كان بهيَّ الطول في الفناء من بعيد! لم أرَ وجهه وهو يُسلِّم على نسوة الحيّ أثناء زيارتهنَّ ودخولهنَّ الدار. هرولتُ نحو غرفتي قبل أن يرى شَعري القصير، وقبل أن تراني النسوة مخافةَ أن يُطلقوا عليّ: أُمُّ الشعر المبتور، وهنَّ يتَّجهن إلى غرفة جدَّتي واحدةً تلو الأخرى. نظرتُ إليه وشعرت بأنَّه التفت قليلًا، ولعلَّه رآني من بعيدٍ قبل أن أدلق نفسي من باب غرفتي، ونساء الحيّ

يأخذهنَّ الحديث في الصباح عن الخمر في دُبَيْ، وكيف أخذ يودي بعقول الشباب، منذ أن تمَّ السماح بتناولها، ولم تنتهِ مصائبه على الرَّغم من مُضيّ عقودٍ على الرخصة. ويمتدُّ الحديث إلى الضحى مع أجواءٍ من الثرثرة والضحك بعد طعنٍ ولعن، وأمضي بخيالي ووهمي في موقع تجسُّسيٍّ خلف نافذة جدَّتي، أسير بخطواتٍ بطيئةٍ في ممرِّ الليوان وأنا شبه غائبةٍ بين الأعمدة بأهلَّتها، وهي تهاجم مقلتيَّ هلالًا بعد هلال، مُختزلةً كلَّ الأخبار بعد نهب الأقوال قولًا بعد قولٍ، حتى أعود لوحدتي، أغلق الباب خلفي، أغمس حبري في دفتر يوميَّاتي، وأضع عنوانًا لقصّتي:

## خَمرٌ وطنيَّة

«تُطوِّق الأيَّام حرارتها الثقيلة على الإنجليز في دُبَيْ، وهم يعبرون ضفاف الخوْر من أجل المَبيت في نُزُلها المتواضع، ومن أجل سريرٍ ووجبة طعام، لِيُوَلُّوا هاربين منذ فجر الغلس تجنُّبًا لرطوبة بائسة، ولانعدام الخمر بوصفها خالقًا لمزاج الحياة وكاشفًا للروح المُنتشية ولو ساعةً أمام خوْرٍ داكنٍ وضحل. وبعيدًا عن الأحاسيس الورعة، فمن يعتقد بزهد الخور؟ ومن يعتقد بمائه الثمل؟

مذ ريعان التراث والخمر تبوح للساحل بحماس إرثه على أرضه وبمسافةٍ منتزعة. قلائل هم الذين فهموا الأغراب

وهم يغادرون بأحداقٍ مُتذمِّرةٍ ومقروءةٍ باللاعودة، حتى أتى ذلك المُستثمر سليل جبال الشام، الثريّ الحذق، جاء ليبني موطنًا استثماريًّا في فندقٍ جميلٍ على ضفَّة الخوْر، ويُقدِّم الهواء البارد وإن كان صناعيًّا في غرفٍ نظيفةٍ ومطعمٍ مغسول، لتتوافر الاستراحة بكلِّ متعها سوى الخمر برحمته الممنوعة. فكلُّ من يأتي من بعيدٍ، لا شكَّ أنَّه قد جاء من أجل رؤية الغروب الساحر على الخوْر، والغرف الجيِّدة أمام مياهه والنوارس المُحلِّقة. وما إن يكتشف انعدام المُعتَّق الصافي حتى يُنهي فكرة الإطالة لينصرف سريعًا.

تنزَّه المستثمر في أحياء دُبَيْ لمراقبة الخمر الوطنيَّة، حدث هذا بعد ما سمع بتوافره، حيث اعتراه فضولٌ إذ كيف يكون ممنوعًا ومباحًا معًا، ليكشف بأنَّ المجتمع طبيعيّ، يتداول رحيقه في مساءات الخميس في صناديق بلاستيكيَّة شفَّافة مغلقةٍ بالفلِّين، تُفتَح وتُصبُّ مع أنغام العود دون حَذَر، وفي أمكنةٍ ليست سرِّيَّةً لكنَّها شبه خفيَّةٍ ومُبهجة.

فَهِمَ المستثمر كيف تمضي لعبة المكان والمجتمع بوضوحٍ ساخرٍ من نفسه خلف الأبواب، والشراب المعتَّق المُخَلَّص يموج بألوانه بنيَّة الانشراح بعد يوم عملٍ مُرهِق، حتى سكبوا بوْح الكؤوس من شفاههم.

ذهب المستثمر مراقبًا حفلات الليل وطَرَب الشباب، وهم في صفوف الجلَّاس المرحة ينعمون بسماع لحنٍ من

رنيم العود، وكؤوس مترعة برحيق التمر والتفَّاح بين الأيادي، إنَّه مجتمعٌ يعيش ميوله الطبيعيَّة. منذ ذلك اليوم، تشجَّع المستثمر وجدَّد مطالبة بيعه الشراب المُعتَّق طالما الأمر غير محظور، على أن لا يكون الشراب المباع من النوع الوطنيّ الرخيص، بل من «كري مكنزي» تلك المُصنَّعة في دولٍ بعيدةٍ، وشركاتٍ أصحابها من الإنجليز بمنطقة الراس، هناك حيث يجري البيع بشكلٍ علنيّ.

وفي كنف التناقض، حاول مرارًا إقناع المسؤول بأن يبيع في فندقه خمرًا، ولكن من دون فائدة. حتى لزم قراره، فإن لم يقتنع في هذه المرَّة الأخيرة، فإنَّ وجوده في الفندق سيصبح خاتمة مشاريعه في دُبَيْ، وسيغادر إلى الأبد، متوجِّها إلى المسؤول بسؤالٍ مفاده:

«ما الخمر في اللغة برأيك يا سيِّدي وأنتم لديكم خميرة الخبز، وخمر العجين، والمرأة لديكم تضع المخمريَّة في شعرها».

ضحك المسؤول من قلبه وجهله.

أكمل المُستثمر:

«انظر إلى شجرة الغاف العجوز العاقلة، كيف تتشابك في أغصانها وهي ثملة في صبرها وعطائها، انظروا جيِّدًا إليها وهي تحضن نفسها بانتشاء، بل انظر إلى سيِّدات المكان حين يضعن «الوقاية» ـ الغطاء الناعم والشفَّاف على وجوههنَّ

إن مَرَّ الغرباء من أمامهنَّ، تنتشي إحداهنَّ استحياءً، تغطِّي سرورها وتستر بسمتها، وتمضي بنشوة.

أخي المسؤول، إنَّ النشوة هي حياة الإنسان وعُصارة أعماله. انظر إلى ماء الخوْر يتموَّج سكرانَ على الدوام، انظر إلى آبائكم وأجدادكم المهرة كيف صنعوا الخمر الوطنيَّة بذائقةٍ من تمرٍ وتفَّاح، هي قبل كلّ شيءٍ عصارة روحٍ حيَّةٍ بعد اهتزازٍ وقطف».

يستمع إليه المسؤول في مجلسه مُبتسمًا، ونافيًا بهزِّ رأسه كلَّ ما يذكره من فقهٍ بلا بيِّنة.

صمت التاجر الفندقيّ طويلًا، ثم قال مُتذمِّرًا:

«إذن، اسمح لي أن أُغلق الفندق، لأنِّي لا أكسب كثيرًا من هؤلاء الذين يبيتون ولا يجدون الخمر، حيث إنَّهم يرحلون بعد ليلةٍ واحدة من إقامتهم. وآه، لو جلسوا مدَّةً أطول لغنمت وانتفعت؛ أمَّا والحال هذا، فإنِّي سأعلن إفلاسي قريبًا».

اضطرب المسؤول من ردِّه، فالإمارة تريد سياحةً وتُجَّارًا وتِجارة، لذلك قال له:

ـ لا بأس من أن تصبر أيَّامًا قليلة...

أتاه بعد أيَّام ببشارة إمكانيَّة تقديم الخمر، شرط أن تكون في خمَّارةٍ، وبداخل فندقه لا خارجه.

بُذرت بذرة السياحة المكشوفة في دُبَيْ منذ تلك البشارة، ليتوافد على آفاقها الإنجليز والأرمن والهولنديُّون والهنود

والعرب والفرس وكلُّ شاكل يعشق ضرب الأقداح وسكب الكؤوس البلُّوريَّة بعد تجارة، ولم يعد للرطوبة إدراكٌ وملمسٌ بعد الشرب والانشراح، وهتف المخمورون فرحًا، فقد عطَّلت الخمرة الاكتئاب.

لم يهدأ الأهالي، ولم يسقط الجدلُ عند المسؤول:

«ألا تخشى على شبابنا! إنَّ منهم مَن أخذ يشرب معهم، ومنهم مَن يراقب ما يرى بسعادةٍ! لقد فسد شبابنا أيُّها المسؤول. إنَّه أمرٌ صادمٌ لنا وللعائلات المعروفة في دُبَيْ ببريِّها. كلُّ المساحات تأبى الخمر هنا، فلا خمر للخوْر ولا للخوْر خمر، ولا انتشاء لنا سوى في مجالس الموالد وذِكر النبيّ، حيث نتمايل يمينًا ويسارًا ونحن ننشد القصائد في حبّه، ولا سكرة لنا سوى بسماع صوت النهام».

زادت الشكاوى على المسؤول، وسيِّدات دُبَيْ يهرولن إليه كلَّ يوم وهو خارج من مجلسه أو مكتبه، ليخبرنه عن أزواجهنَّ كيف أصبحوا يتحدَّثون عن الخمر بدلًا من أيِّ شيءٍ آخر! وكيف أنَّ الشباب أصبحوا ولو من باب التطفُّل يخرجون ليضحكوا على السُّكارى. لقد كاد الشباب أن يُصبحوا من المنتدبين على عتبة باب فندق المُستثمر حيث ضفَّة الحيّ، وبين جدلٍ وضحكٍ عليهم، وفي قلوبهم أمنية المذاق، ويأتي من أبنائنا مَن يُعبِّر عن رأيه، لقد غرق شبابنا في شطط الحديث عن أيّهما ألذّ، الخمر الوطنيَّة أم خمور

الغرباء في «كري مكنزي»؟

حينها أطلق المسؤول رأيه الشبيه بِرَدٍّ نافذ، فانتقى جوابه بعد أن نخله نخلًا، وكما أورده عقله ورؤيته، وبأصواته المُتنوِّعة، كان جوابًا مُصفًّى في تراث الساسة، ينازل الشكوى الدائمة:

«من أراد الصلاة فهناك مسجد، ومن أراد الخمرة فهناك فندق، والاختيار لكم».

كان الصمت حادًّا بين سحر القول وصوت إيقاعه، ليكمل المسؤول:

«نوفِّر لكم الاختيار، لأنَّنا نريد تجارةً ورزقًا. وهؤلاء لهم شروطهم، كما أنَّهم لم يجبروكم على فعل شيء، وأنتم لستم خارج الحياة! إلى متى ستقولون: نحن غير الناس؟ أفيقوا، فالعالم يتغيَّر».

وكأنَّ ثمَّة ما صدَّ لهيبُ الظهيرات، والإيقاعات الغامضة للسهرات الوطنيَّة. فمنذ ذلك اليوم وأهل دُبَيْ ببريّها المزدحم ما بينهما بشحن القوارب الجادفة على صفحة الخوْر، أوقفوا الإنتاج الداخليّ، وأفاقوا على الخمر الإنجليزيّ الأطيب مزاجًا. وبفضل الأرباح والنفع وازدياد الحركة، ومن منبعه في «كري مكنزي» حيث منطقة الراس، ينتهي مجتمع الليل، ويهجره المُرتادون إلى الفنادق فرادى.

# 25

أتوهَّج بعد غمس الفكرة على الورق، وكأنَّني بإنجازي نصًّا قصصيًّا أرتق ما بي، وأصبح أكثر هدوءًا، يستطيع النصُّ أن يمدّني بالإغفاءة. والحقَّ أقول إنَّ في الإغفاءة نزعةً لذيذةً بين الضحى والظهيرة، لم أستفق منها إلَّا ودفقة النور تنهمر من برج الهواء لتشعشع على جسدي ووجهي. حينها نهضتُ مُطمئنَّةً بشعورٍ عالٍ يُخاصِمُ حُزني ويؤازرني بعد الإنشاء الجديد، أرتدُّ باحثةً في صندوقي المهيب عن ثوبٍ مُبهجٍ وفاخرٍ أرتديه، ثوبٍ من قماش «بو طيرة» بلون دم الغزال. كان فستانًا يليق بي وبشَعري القصير أمام المرآة التي تُخبرني بباطني عن ظاهري، أُنادي على نفسي أمام انعكاسي، وبحيويَّة: «مرحى».

أُنصت لتحيَّة المساء في حضرة جدَّتي، التي أُعجبت

بهيئتي المُشرقة وهي تتفحَّصُني قائلة:

ـ ترتدين قماش حُسن يوسف، يبدو جميلًا عليكِ على الرَّغم من شَعرك المبتور، لكنْ ما بك؟

ـ إنَّني بخير جدَّتي.

ـ هل تشربين الماء؟

ـ نعم.

ـ اشربي أكثر، فوجهك شاحبٌ، والشحوبُ دليل العطش.

ـ «بأمرك جدَّتي».

ـ لا تَنسي أن تقلبي الكأس بعد الشرب، كي لا تسكنها الأرواح، حينها لن تنهضي من النوم.

ـ «بأمرك جدَّتي».

أتت فتاة الخدمة وبيدها دلَّة القهوة والفناجين. ومع صمت الجميع بعد حديث جدَّتي الفجّ، تناولت على الفور الدلَّة كعادةٍ اجتماعيَّةٍ راسخة، فمَن يريق قطراتها بأدبٍ جمٍّ في حضرة الكبار يجب أن يكون من منبت البيت، ومن أقوال أمِّي التي لا تتركني: «النبتة والقهوة سيَّان لا تحبسان فوْحهما». أصبُّ لجدَّتي فنجانًا مفردًا، واثنين، وثلاثة، ولا تريد التوقُّف، حيث ترغب بفنجانٍ رابع، وقد عادت لتراث المُعتقَد لتقول:

«إمَّا أن نتوقَّف عند الفنجان الثاني أو الرابع، أمَّا التوقُّف عند الثالث، فدلالاته الطلاق بثلاث طلقاتٍ وبالتالي الفِراق».

ـ «بأمرك جدَّتي».

لا بدَّ من تمثيل الصمت، على الرَّغم من أنَّني كدت أن أسألها عن هذا الثالث الذي لا يريدون تثبيته، فمن أين أتى هذا المُعتقَد؟ لكنَّني تذكَّرت درسَ التاريخ والدين في المدرسة، كيف كان الثالوث في الأمم البعيدة رقمًا مُقدَّسًا منذ الشمس والقمر والزُهرة، إلى الأديان، وانتهاءً بالوضوء، فكلّ مسحةٍ بثلاث مرَّات، والقول في السجود والركوع ثلاث مرَّات. ثمَّة ما بقي في ذاكرة الشعوب منذ إيمانها بإلغاء الفكرة التي بقيتْ موروثةً بطريقةٍ ما!

# 26

أخضُّ الفناجين، فيأخذني الوهم وأنا ألمح الثغرَ المقطَّرَ للدلَّة في يدي اليسرى التي لم تتعثَّر شفتها المثقوبة قطّ، لتُسيل ما بها من خطايا منذ أن سُمِّيتْ بالدلَّة الزلَّة، فيا له من نسبٍ ويا له من وجعٍ قديم! فالجدَّة الدلَّةُ الكبيرةُ المُلقَّبةُ بالخمرة منذ تاريخها الأوَّل لمَّا تزل فوق الجمر تُضحِّي بحياتها لتصنع حثالة القهوة في جوفها حتى تصفو. منذ العادات الأولى للجدَّات وهنَّ يُخمِّرن المذاق، ويغيِّرنه عمَّا كان عليه، لتشقَّ الحثالةُ طريقها من الأمّ إلى الدلَّة الابنة المدعوَّة المُلَقِّمَة لتغلي لقمة حثالتها المطحونة مع الماء الساخن كترنيمةٍ مُتعبة، ونأتي نحن الميسورين لندلق في مهجتها الزعفران والهال، نشمُّها ونغنِّيها كأغنية حُبٍّ وانشراحٍ في كلِّ لحظةٍ من شفةٍ إلى شفة، لتُصبَّ في دلَّةٍ أصغر هي

الحفيدة المُدلَّلة المدعوَّة المزلَّة.. وها هي في يدي كأنَّها تعترف بالخطايا والزلل، أسكب ما بها من ذنوبٍ في أقداحٍ دائريَّةٍ، نشربها ونُكرِّرها ولا نكفّ حتى نخضّها لتتوقَّف انتباهًا مثل الحياة الدائرة.

أُفسِّر كلَّ شيء، ولا أعلم إن كنت على حقّ! هو الخيال يردف بي أينما ذهبت ومهما سمعت. وتضطرّ جدَّتي لشرب الفنجان الرابع، بينما كنت أتثاءب، ليأتي صوتها من جديد:

أنتِ محسودةٌ يا ابنتي، تتثاءبين كثيرًا. وأعتقد أنَّ هذا ما يؤخِّر زواجك.

اندلقت القهوة من الفنجان على ثوبي.

جدَّتي:

خير خير. فرحتُ لكِ، ثمَّة رزقٌ بحجمٍ ضئيل، فبقعةُ القهوة صغيرة.

# 27

دستور. . صوتٌ يجيء من الفِناء فيُزيل حلم يقظتي اللذيذ، فهو بشيرٌ بأنَّ زائرًا من الأهل قادم، ما يوجب عليَّ أن أتوجَّه إلى غرفتي. لم يكن الزائر غريبًا بل هو نسيبٌ لهذا المنزل الكبير، هو الشقيق الأكبر لزوجة عمِّي الشهير بوسامته وشدَّة حسنه، وعبق مسكه ورشرشة عطوره الثمينة، وشجاعته المتناهية، وفروسيَّته فوق خيولٍ مزاجيَّةٍ بلا سرج. وكم تردَّد على مسمعي بأنَّه بلا ذرِّيَّةٍ حتى الآن، إذ كلَّما تزوَّج من واحدةٍ توفِّيت، فلأراقبه ولو من بعيدٍ لكي أرى ما يطابق السمع ممَّا به من نحسٍ، لعلَّه يسكن يوميَّاتي.

ببطءٍ وحذرٍ شديديْن، سلكتُ الرُّواق لأرى الذي تخلَّد طويلًا في أذنيَّ، ومن فتحة ضيِّقةٍ في النافذة أبصرته جالسًا نصف ركعةٍ في غرفة جدَّتي الواسعة مُحاطًا بالجميع. وكم

كان أخَّاذًا في جلسته، وفاتنًا بجذعه الطويل! وما إن التفتَ بوجهه حتى شهقتُ من سملٍ في عيْنه اليُمنى. تعاطفتُ وتماسكت، وقلبي هرول في صدري. تجاهلتُ بجلادةٍ. رحت أستمع إلى عِزَّة إحساسه ونفسه، ومروءة حديثه ورقَّة لغته، أبهجَ روحي مُستحوذًا عليَّ. لم أغادر بعد أن التصقت النافذةُ بي، كان هو الوحيد المُطلّ عليَّ بوجهه، والبقيَّة حوله، لا أرى سوى ظهورهم وجوانبهم.

جليسٌ فاتنٌ ذو عيْنٍ واحدةٍ يمدُّ يده إلى التمر، وتصبُّ زوجة عمِّي القهوة، يرتشف وكأنَّ الفنجان قد شُغِف به. رشف رشفته الأولى ثم الثانية، ومع الثالثة نظر إلى النافذة فأبصرني بعيْنه الوحيدة، فاضطربتُ مُرتعبةً، ولم أجدني سوى ملتصقةِ الظهر بالجدار المجاور للنافذة، هرولتُ وقلبي يسعى معي. لقد دوَّخني، وكأنَّه سجَّل في قلبي تعلُّقًا طويلًا، ولجتُ غرفتي وسريري، وبقيتُ أحزر كالواهمة: هل رآني من النافذة فعلًا أم هو وهمٌ من أوهامي؟!

# 28

داهمني التعبُ في فضاء غرفةٍ صيفيَّةٍ أواجه فيها مهوى الرياح فوق التخت، وشهقة أنفاسي خرجت بصوتٍ مكتوم، أودت بي من الزَيّغِ نائمة، لم أستفق على حُمَّى نديَّةٍ دهمتني عند الفجر، وصوت الديك أوقظ قلبي الجديد، ومفردات المجنون تُعيد واقعي. بقيتُ كما أنا حتى نفاد الفجر، لعجزي عن النهوض من الفراش؛ أغفو وأصحو وأغيب، وأنتظر أحدهم يوليني اهتمامًا بعد شروق، حتى وصلت زوجة عمِّي بعد تحيُّر منها على غيابي، فارتابت ما إن وضعت كفَّها على جبهتي. ولم يشغلها منذ تلك اللحظة سوى القبضِ على الحُمّى، وبذل كلِّ ما يلزم من أجل السيطرة على سخونة الجسد. وظلَّ القلبُ محمومًا، بينما كنت أتأمَّل زوجة عمِّي وهي تضع الكمَّادات على رأسي. كانت عيناها شبيهتيْن بعيْن

شقيقها الوحيدة، وقد أحرقتني اللوعة على ما يجري لي من عشقِ رجلٍ بديع.

اليوم جمعة، وجدَّتي لم تتناول أدويتها منذ اعتقادها الراسخ: لا أحد يشرب الدواء أيَّام الجُمع، فالله وحده الشافي في يومه المبارك، وعلينا ألَّا نتجاوز اللهَ في الشفاء بأدويةٍ من صنع المخلوق. كانت تُفضِّل أن يحملها الخدم إلى ضفَّة الخوْر القريبة للعبور إلى الضفَّة الأخرى، فذاك عندها أفضل من شرب دواء يُحدث فرقةً بين العائلة. ومن وصايا هذا النهار عدم تناولي الأدوية، ليمتدّ هذياني وأنا أغلي.

لن تزول الاعتقاداتُ بسهولة. وأنا بدوري لم أفعل شيئًا طوال اليوم سوى التمدُّد بجسدي المسكون بحرارةٍ ما إن تهبط قليلًا حتى تزداد أسئلتي غير المباشرة لزوجة عمِّي في إيابها وبقائها، وهي تأتي بما يلزم لعلاجي، من أجل كلِّ ما يمكن معرفته عن عائلتها، ولا هدف لي سوى الإمساكِ بحكاية الفاتن ذي العيْن اليتيمة الآسِرة، ولو بشكلٍ عابرٍ، لأبدِّد ما بي.

# 29

كلَّما أفقتُ أبصرتُ الزوايا المثلَّثة في برج الهواء بفتحاته الأربع من كلِّ جانب، متسائلةً عمَّا بي وما تلقَّفته من هذا الثلاثينيّ البهيّ. مُستلقيةً لأؤسِّس خيالًا جديدًا، وذاكرةً من لهبٍ ولهف. وعلى الرَّغم من حرارة جسدي، وتسرُّب الإنهاك إلى رأسي، مددتُ يدي أسفل المخدَّة أسحب يوميَّاتي، أحاول كتابة ما تعلَّق بي، وأنا التي لا تتعلَّق، أنا التي تجنَّبتْ أن تصبح عاشقة؛ فكم نجحتُ في هروبي من زوَّار المدرسة من شباب الكشَّافة والمسرح الذين كانوا يصوِّبون إلينا نظراتهم، ومن ضيوف أخوالي الذين كان الواحد منهم كالبدر في طلعته؛ وهربت من العابرين الأخَّاذين في الأسواق، على الرَّغم من سعادتي ولو لوهلةٍ برؤية صُوَر العشّاق في مجلَّة، وحين أقرأهم في كتاب، لكنَّني لم أتوقَّع

يومًا أن يدخل العشقُ قلبي ولو للحظة، أليس في الوقوع بالعشق جنونٌ صعب الخلاص؟ فكيف أتورَّط بالوقوع في مصيبة الغرام هذه؟ لم أكن يومًا أخاف من الوقوع. نعم، نقول الوقوع في الحبِّ لا الصعود في الحبِّ. فكيف حدث بأنِّي وقعت في لحظ تلك العيْن الساحرة والوحيدة! مَن الذي فقأ الأخرى يا تُرى؟

# 30

نسمةٌ باردةٌ هبَّتْ عليَّ كجائزةٍ في لحظات الصيف النادرة. كانت نقاهةً من عليل، أُغمض عينيَّ وأتواصل لأوَّل مرَّة مع روحي العاشقة بقلبٍ يجلده التعب، قلبٍ غاضبٍ يضرب صدري، قلبٍ لا يهدأ من وقع الغرام، فهل يُعقل أن يسيطر عليَّ شعور العاشقات؟ ها أنا يا ألله أحبّ، فمن أين أحببتُ؟ كيف وقعت وأنا دائمة الهروب! كيف عشقتُ يا تُرى؟ ومن أين يا ربِّي أُصبتُ؟ آسف عليك يا قلبي وأنا الضحيَّة منذ تلك النافذة شبه المغلقة. لا، لا أريد هذا البلاء فهو يُحرقني، وها هو الديك يصدح بصوته الأزليّ، ويقطع وتر السُّبات الذي لم يستطع الكثيرون تفسيره، بينما الكلّ يَدَّعي فهمه، تمامًا مثل الحُبِّ في ادِّعاءات البعض، ولم يُخلِّد الشوقُ سوى المُتأمِّلين تأمُّلًا لا غفلة فيه.

# 31

يومًا بعد يومٍ، ضاع عن يوميَّاتي حسابُ الأيَّام بعد أن دهمتِ الحُمَّى جسدي، حتى هذا اليوم الذي شعرتُ فيه بتحسُّن حالتي. وقُبَيْل الغروب مشيت ببطءٍ خارج الغرفة، وأجلس في الصَّاباط كالمتربِّعين، حيث دكَّة الفِناء والسقيفة الهلاليَّة المُظلَّلة بين حائطيْن، لرؤية القمر الفضِّيّ الذي لم تدعه بقايا ضياء نهار اليوم أن يتلألأ تلألؤ الجوهرة، فظهر كدائرةٍ بلون الغيم الباهت، فهل أقبلتَ مُبكِّرًا يا قمري؟ وهل شعرتَ بي فأتيت لتراني؟

كيف أكتب عمّا كانت تبوح به لي زوجة عمِّي طيلة الأيَّام الماضية، وعمَّا لَمْلَمْتُهُ منها وما تراءى لي من كلامها من صُوَرٍ لشخوصٍ كالأشباح، وأنا أسرح بذهنٍ ساخن، وهي تحكي عن أخيها، ولا مفرَّ لي من تخيُّل ملامحَ تستريح في

عينيَّ، ملامحَ أضعها أينما شئتُ، وبهاراتٌ ملوَّنة رشرشتها فوق الحكاية، وها هو الليل يعود ليكسو قمري باللون الذهبيّ، وفي مخيِّلتي فكرةٌ، وبمفكِّرتي نصٌّ سيبدأ. ولعلَّ الكتابة وإشعال حكايةٍ، ستُعينني على التخلُّص من وَهَني، وتبديد أسر الغرام، لذلك عدت إلى غرفتي بفتورٍ لفتح صفحةٍ جديدةٍ من أجل عيْنٍ جاذبةٍ وقاتلة الحُسن، من أجل حلو المُحيّا، من أجل فتنة العين الأخّاذة وضعتُ عنواني:

## قمرٌ بعيْنٍ واحدة

حتى عام 1938، كان الظلُّ عاشقًا في دُبَيْ، يتنهَّد كغصن الزهر أمام خوْر الماء الصغير النائم كالحلم، يحتضن قواربه وعَبّاراته المُتنقِّلة بين ضفَّتَيْ برّ دُبَيْ وبرّ ديرة، إلى أن عَبرتْ فوقها رياح الزاعي، فنثرت شدَّتها، وزعزعت هواءها بين الأزقَّة في المدينة. وفي هذا الوقت، كان أعضاء مجلس إدارة شؤون الإمارة في طريقهم إلى اجتماع المجلس الذي كان عند مداخل رسوِّ السفن بالجمارك، ليقرِّروا كعادتهم، ويتشاوروا حول إدارة المعارف والبلديَّة والأمن والحراسة، وحول ما يمكن فعله، ثم ليقرِّروا لإمارة الوصل، وفي يدهم مفتاح المجلس، لكنْ ولأوَّل مرَّةٍ لم ينفع المفتاح! فهل تغيير القفل عُذره الخلافات على ريع الجمارك؟ أم أصبح القَفل عاكسًا لمفاتيح الغيب؟

شَعَرَ الأعضاء بأمرٍ ما، فارتدُّوا قبل العصر إلى بيوتهم، لكنَّهم لم يعودوا نُوّابًا منذ تلك المسافة، لتبدأ الموقعة الفانية حيث الخصام بين ديرة وبرّ دُبَيْ في عصر ذلك اليوم. وعلى مرأى الريح المزعزعة في معارضةٍ بين مجلسٍ ومشورة، تأتي مواجهة سلاح العصيّ والعصوان، والتخلِّي عن الاتِّكاء نحو الضرب، والتشاكل في الهيبة؛ ومن المصادفة أنَّ عرسًا كان قائمًا في ذلك العصر، فأطلقوا الرصاص فوق أسطح المنازل العالية بين أبراج الهواء لفترةٍ قصيرةٍ بين أطياف رياحٍ جافلةٍ سريعةٍ وبلا عودة، ولم يُخمِّن الناس سبب إطلاق العيارات الناريَّةِ الرصاص التي ملأت الجوّ، هل هو عرسٌ أم غمٌّ من حرب!

انهزم المجلس وتفكَّك وانفرط. وبعد تهويلٍ قاموا بسمل عيْن شابٍّ كالقمر، حيث قام بعضٌ من أصحابه المعترضين بانتزاع الجمال بآلةٍ حادَّةٍ ساخنةٍ كمسمار، فقأوا بها عيْنَ الدرّ المكنون، وصمتَ الجميع في الأسواق والمُربع، فلا شراءٌ ولا بيع، بل صمتٌ حزينٌ انغرس من سوق السلاح إلى سوق الفحم والوقد، إلى سوق الصفافير حيث القدور والمواعين، وتكرَّر في سوق المناظر حيث تلوح صناديق المرايا برؤوسها الزجاجيَّة العاكسة، والتمع الحزن في سوق المعادن إلى سوق الدُوْيَات، وتغلغل في الخِلْقَان بسوق الأقمشة الملوَّنة، وطفا في كلِّ سكَّةٍ من تلك الأسواق، والصمت يتفرَّج.

نَمَت الأسرار في الظلمة الخالية من اللمعان، بعد قطعٍ أودى بالنور، وأخذت الأسرار تسبح في العماء بين البيوتِ الكبيرة للعثور على الضمائر الميِّتة في ذلك العتم وهم يخطِّطون بذمَّةٍ طويلة الأمد للاختباء في الحَلَكْ. صمتت كلُّ الأزقَّة صمتًا مرفوعًا في دارات الأسر الثريَّة والواسعة، والمتَّصلة فيما بينها بجسورٍ في طوابقها العلْويَّة، وبدأت الأقدام تتحرَّك فوق أرضيَّاتها بينما الأعمدة الشاهدة منصتةٌ بحرص، وأمست أجملُ النوافذ النحاسيَّة الحمراء خرساءَ، على الرَّغم من أنَّها لم تكن موصدةً بل مفتوحة على مصاريعها، ترى من خلالها كلَّ شيء، بينما الدهاليز والأبواب قرَّرت أن تغازل الخَرَس لترتاح. وهكذا، بالسير نحو الساكنين حول مدرسة الأحمديَّة في الراس، وبين منازل أبناء آل فلان وآل فلان والمساحات الجديدة، كظم فيه الجميع وأضمر، وأصبح هذا القمر بعيْنٍ واحدة.

# 32

تتنهَّد الحياة أزمنتها كلّ حينٍ، من زمنٍ كسولٍ يرافقه زمنٌ جبان، وأحيانًا زمنٌ بلا معنى، إلى زمنٍ بلا مروءةٍ، ليمتدَّ خائرًا ومتردِّدًا ما بين بين، فيحتار الناس في زمنهم بين جمودٍ وحراك، ولا يأتي ذلك الزمن الشجاع، ويبقى الانتظار فعلَ أولئك الخائبين والحمقى، أولئك المُعطِّلين للكوْن بأكمله، حتى يأتي الزمن الشجاع على يد مُجدِّدٍ بشريٍّ، ليتباركَ الزمن وتستقيم الحياة كاستقامة هذا النور الآتي من برج الهواء المنساب فوقي والمُنثال على فراشي. مستيقظةٌ من وهمي وقلبي على حلم الزمن، فلولا هذا الشعاع المُنسكب لأُصبت بنسيانِ أمرِ ملابسي العصريَّة التي استولوا عليها، لأتساءل بعد الاستيلاء: لِمَ يا ترى قَسَّم ذلك المصمِّمُ الفرنسيُّ ثوبَ المرأة الطويل إلى قسميْن بالمقصّ، من خصرها! هل ليختصر ذاكرةَ

القوام في قميصٍ وتنُّورة أم أنَّه كان شجاعًا بطبيعته، أم كان هو الجريء في زمنه؟ وإلَّا كيف انقسم الفستان إلى قسميْن بعد آلاف السنين من الاستقامة والصبر؟ وها هو ينتشر بعد تقسيمه كالحُبِّ بين إناث العالم.

يبعثرني الوهم بوصفي ابنةً تعيش عصرها ونار المقرّ، وتبقى المُحصِّلة في لغتيْن، لغتي النبْطيَّة التي أتحدَّثُ بها كفتاةٍ تنتمي إلى أراضي الساحل المنسيَّة، ولغة النهضة العربيَّة الفصحى التي اتَّخذتْ من اللغو خلافةً جديدةً تنمو حيْرى في أراضٍ شاسعةٍ تُدعى الأراضي العربيَّة، وفوق أنقاض الأمبراطوريَّات البائدة، فكان القرار لزمنٍ ألبسني لبوس التراث في المجالس، كان الأمر كافيًا بالنسبة لي لأُصدر حكمًا على أثره، مودِّعةً لغة الأنباط نحو الكتابةِ بلسانٍ فصيحٍ، وفكرٍ يمتدُّ إلى هَذَيان يوميَّاتي المحشوّة بتعبي وأنا أتفرَّج على مسرحيَّةٍ لزمنٍ عربيٍّ مُتحوّل.

# 33

فاحت رائحة القهوةِ، وتفشَّت رائحة الخُبزِ، وتَبدَّلَ حِسِّي، فتداعت أفكاري. شربت اللبن، ونهضت لأرتدي ثوبًا مصنوعًا من قماشٍ أطلسيّ بلون العشب، متزيِّنةً بقطعٍ صغيرةٍ من الذهب كما هو العرف في داراتنا. قبَّلت رأس جدَّتي، وجلست بجانبها هادئةً، فلا كلام لي أمام حضور الكبار. كنتُ ممثِّلةً بارعةً، ومع ذلك لم يغب طيفُ ذي العيْن الوحيدة عن ذهني، مؤثِّرًا على تلقائيَّتي، حيث ملأ يوميَّاتي بقصصٍ وَفَدَتْ من تَعَلُّقٍ ووله، حتى أصبحت أتشكَّك في خيالي وقيمة ما أملك في أن يكون القلم مُنجرفًا من فرط الحُبِّ، أو أنَّه شحَّ في الخيال. ومع فوضى واختلاطٍ انبثقتْ فكرةٌ مُلهِمةٌ من زوجة عمِّي الأقرب لي، للانضمام لها إلى مشوارٍ للسوق، والمُضيِّ بصحبتها، وبعد استئذانٍ طويلٍ من جدَّتي لتوافق

على رفقتي لها إلى جولةٍ من أجل شراء خيوطٍ ملوَّنةٍ من مربَّع السوق، تكمل هوايتها مع النسيج على الرَّغم من استياء جدّتي من ممارستها الخياطة، فبرأيها إنَّ هذه الممارسات ليست لعُليَّة العائلات.

كنَّا نخطو حين أثنتْ على ما ارتديت من ملابس، وكيف أصبحت قامتي أكثر طولًا بفضل قماش ثوبي بلونه القرمزيّ المُقلَّم طولًا على جسدي، و«الشيلة» ذات التور المخرَّم الشفَّاف فوق رأسي وقد جعلتها تنحدر على وجهي مُتعمِّدةً فعل ذلك لعلِّي أرى أخاها عابرًا، فأبدو له في السوق كحلمٍ فاتنٍ بوجهي الذي كان بين المنكشف والمستور. بينما الأمرُ الذي لا يخطر ببال أحد هو أنَّني كنت أضمُّ أسفل إبطي ومن فوق العباءة دفتر يوميَّاتي لأتخلَّص منها، وإن رأى من رأى في الطرقات، فلن يظنّ سوى أنَّه كتاب «البرزنجي». وصلت حدَّ الرصف أراقب العامَّة وزوجة عمِّي، التي ما إن مالت برأسها إلى الجانب الآخر حتى قذفتُ بيوميَّاتي في الهواء لترفرف أوراقها وتطير مُجنِّحةً حتى السقوط باستسلامٍ على سطح ماء الخوْر. كان الارتطام حادًّا، تباعدت على إثره الطيور المُحلِّقة، كما تناثرت الأسماك السابحة من صدمة الزلّ.

# 34

تخيط زوجة عمِّي الملابس لي ولها ولابنتها التي ما زالت تحبو، أمَّا جدَّتي فقد كانت تتذمَّر من هذه الممارسة بوصفها مهنة خدم، فكيف يقومون بالخياطة وهم يملكون الأيادي العاملة في البيت! كانت ترى أنَّ عليها تكليفَ إحداهنَّ بمهمَّة الخياطة، بينما مضت زوجة عمِّي بعد اكتشافها مهارتها العالية في الحياكة إلى تأسيس عالمٍ لامعٍ من الألوان والآلات. تفحص الخيوط وتفتِّش وتتمحَّص مصدر الدرجات ببالها ولا تجدها، وها هي تنشد البائع أصباغًا أخرى. كم شعرت بالتقائنا، وبأفكارنا المتقاسمة، وإن تباعدت بيننا مدارس الفكر دون عتب! أليس القلم والإبرة يشتركان في تنفيذ الخطوط والعلامات؟ وكأنَّنا نهرب بهما، فزوجة عمِّي تعاني من الأرق، وكما أرى من بعض

الغموض في علاقتها بعمِّي، حالةً يكفي أن ألخِّصها بأنَّها جفاف اللغة، وغياب قوافي الحُبِّ بعد الإنجاب عن زواجٍ تقليديّ مُتْعب، زواجٍ نتيجته ندرة النظر إلى عينيْ أحدهما للآخر، لتنأى المسافة بين قلبيْهما بدعوى انشغاله في جمع الثروة، ومتابعة شؤون السفن وسفر الإبحار وتعمير عمائر من طوب، بينما كانت هي منشغلةً بآلة الخياطة، تسافر مع الإبرة وأسلاكها وتدرُّجات خيطانها إلى فضاءات سوق الخلقان لتلملم قلبها.

وقبل عودتنا من السوق، فاجأتني زوجة عمِّي لتخبرني عن أختها الصغرى التي بلغت الثانية عشرة من عمرها، والمحتفى بها ضمن الفتيات المُكرَّمات الحافظات لكتاب الله على ضفَّة الخوْر، ستفرح إن شاركناها. وكم كانت فرصةً طيِّبةً وأنا أتقدَّم مشيًا إلى جانبها والجانب الآخر من طريق الزقاق، ليطول بنا الحديث قبل الوصول! تخيَّلته هناك يحتفي سعيدًا بأخته الصغيرة، فاستبانت لنا من بعيدٍ كثرةُ الألوان وبريقُ الذهب لفتيات يقفن صفًّا ومعهنَّ خادماتهنَّ، والذهب فوق رؤوسهنَّ وخصورهنَّ وصدورهنَّ، يحتفلن بـ «التومينة». كانت فرصةً للنقاهة أن ترى زوجة عمِّي أفراد أسرتها، لكنْ أين شقيقها؟ بحثت بعينيَّ من خلف قماش الدانتيلَّا الشفَّاف عن ذي العيْن الواحدة، ولكن دون جدوى!

# 35

ها هو يأتي فوق حصانٍ بلا سرجٍ، ينظر إلى الفتيات المزيَّنات بالذهب، المخضَّبات بالطيبِ مع فوح الحنَّاء على الأيادي، والمسك يعبق من الأجساد الصغيرة كأجرٍ ومثوبة، مبتسمًا لعرائسَ صغيرةٍ تحتفي بكتاب الله، يمعن النظر فيهنَّ طويلًا قبل أن يُدير وجهه مُبتسمًا لي، مُتذكِّرًا النافذة بأعمدتها الحديديَّة، طفنا بنظراتنا لبعضنا. يا لجمال الغرام أمامي وهو يحدِّثني بشغف عيْنه الوحيدة! كنتُ منسكبةً في نفسي حين هوت عيْنه ولعًا بي وولهًا. يتحدَّث ويتحدَّث، فماذا عساه يقول؟ لماذا لا أسمع؟ لقد هربتُ من وجهه لأجد مفكِّرتي في يده، قرأها كلّها بحبرها المنزاح وخطوط الآهات، تفحَّصها بعيْنه الوحيدة. حينها دقَّ قلبي، وفزعتُ بصمتٍ، حتى هزَّ رأسه بنعم، فهزَّت زوجة عمِّي الوهم الجميل، مناديةً عليّ:

روزه، أفيقي.. ما بكِ؟

تأمَّلت الفتياتِ من جديدٍ مع تنهيدة يأسٍ لرؤيته، ومسيرة فتيات «التومينة» تأخذ اتِّجاهًا نحو الخوْر والصعود في العبرة للعبور مع السيِّدة المربِّية المُبرقعة من ديرة إلى برّ دبي. كان احتفاءً سنويًّا يلوِّن الخوْر ويُبهجه، جمعٌ من فتياتٍ يقرأن قراءةً صحيحةً مسموعةً، يتليْن القرآن بصوتٍ عذبٍ ينتشر في فضاءٍ أبجديّ الروح مفعم بالشجن، لتأتي جزية الحياة من وحيٍ مكتوبٍ ينساب عَليّ، ويسجِّلني عاشقةً من دون الإمساك به!

# 36

عدنا وقلبي ينادي ولا يسمعه سوانا، مررنا من بعيدٍ بمجلسٍ لأحد الأعيان كان قائمًا خلف منزله. لَطفَ الهواء بنا قليلًا، كان هؤلاء الرجال يجلسون ويتسامرون بتمدُّنٍ، وكما تقول زوجة عمِّي يتحدَّثون عن اللآلئ بحضور طبيب اللؤلؤ الفاحص. زوجة عمِّي المُصابة بالحشمة الشديدة، رأيتها فجأةً تمشي على عجلٍ وباستحياء لتبتعد عن نظرهم وهي تدير وجهها المبرقع عن المجلس نحو الجدار الآخر، وتتركني قليلًا خلفها. كانت فرصتي لأشاهد من خلف غطاء وجهي الشفَّاف ما راق لي من مشهدٍ بدا أسطوريًّا في جلسة في الهواء الطلْق على مقاعدَ خشبيَّةٍ طويلة، فأرى تُجّارًا من أقاربي يُصغونَ إلى حديثِ فاحص اللآلئ ومداوي الدانات. وما إن ولجنا الدار ورفعنا ما على رؤوسنا وأوجهنا، حتى

ذهبت كلٌّ منَّا في طريق هدفها. حينها نادتني العزلة لتشدّني نحو يوميَّاتي الجديدة، ولأنشغل بدفترٍ فارغٍ أخرجته من صندوقي الخاصّ الحامل لكتبي أسفل مفارش التخت، وأضع العنوان المزعوم:

## طبيب اللآلئ

الملائكة بلا سقم، وكذلك اللآلئ، ومع ذلك لا يكفُّ أصحابُها عن التماسِ طبيبٍ لفحصها كلَّما تدفَّقت الأصداف والرخويَّات في أحضانهم. مهرولين إلى الحيِّ العتيق في الشندغة المطلِّ على شدق الخوْر بميمنة من برّ دُبَيْ، حيث يجلس طبيب اللآلئ كلّ صباحٍ على برزته أمام مجتمعٍ تليدٍ لا يتشابك نسبًا مع الأغراب، وهو على يقين بأنَّ التاجر لديه من الألقاب ما يكفيه من أجل الحظوة والخُيلاء، لكنَّه لا يملك لقب «طبيب اللآلئ» اللقب الأكثر احترامًا، والذي يندر أن يحمله أحد.

طبيبنا اليوم، وكما يراه العابرون يبزغ بأنفه الأبيّ، وهو ينظر إلى ماءٍ يموج بتجاعيدَ بلانهايةٍ كلَّما هبَّ النسيم، وملامحه الدقيقة لا توحي سوى بأنَّه من سلالة أمراء الوثن ومن صدر جزيرة العرب حين اختالت بقصائدها النادرة، غترته التي يمسكها العقال سترت أكتافه وهو يضع يديْه على كتفَي الكرسيّ الخشبيّ الطويل، كأنَّه جبلٌ سرمديٌّ ثابت.

ومنذ تنفَّس الصبح إشراقًا، يخرج الطبيب من بيته فاتحًا بابه التليد العتيد بمساميره المُثبتة، يُنصِّب نفسه جليسًا بارزًا يستقبل الرجال إلى أوان الضحى في ذلك الممرّ الفاتح على رصيفٍ مُشرِفٍ على الخوْر الأزرق، يتنعَّم مع من معه بجلسةٍ زاهيةٍ بين جدران البيوت العالية وأبراجها الهوائيَّة المُطلَّة على الإمارة، ومع ارتفاع شمس الضحى وكَنْسِ الضوء للظلال، يبدأ طبيب اللالئ الفحصَ برفع يده، وبين أنامله كرةٌ بيضاء صغيرةٌ يمعن النظر فيها، يُحدِّق ويعاين ويرمق شزرًا، ثم يقلب الكرة ويدعكها، وهكذا دواليك حتى يقرِّر علاجها بإعلانه عن مدى حاجتها لإزالة شحوبها.

وفي يوم من الأيَّام الظليلة أسفل غيمةٍ ضخمةٍ متحرِّكةٍ مع رياح البارح الآتية من برج الجوزاء، الناشطة في عصفها من الضحى إلى الظهيرة، وقبل أن يمضي كلٌّ في طريقه، حيث يمضغ طبيب اللآلئ وصحبه أوراق النعناع، هبَّت رياحٌ من جهة الشمال الغربيّ، بنسائمها الخفيفة، وهبَّ معها رجلٌ طاهر الهيئة مرموق الزيّ، وكأنَّه سُلطةٌ بحدِّ ذاته لا يمكن لأحدٍ استغفاله أو إهانته، قد تجاوز سنَّ الأربعين ربَّما، يحمل في يده كيس قماشٍ مخمليٍّ أسود مشدودٍ بحبلٍ من فوَّهته. ألقى التحيَّة على الجميع الذين رحَّبوا بجلوسه، قبل أن ينظر إلى طبيب اللؤلؤ الشهير بخبرته وتمرُّسه في التطبيب والتثمين، مُدركًا علمه الغزير في أصل اللآلئ وموطنها وفِقه سلالاتها ونسلها وعلاجها، مكتسبًا خبرته سالفًا عن سالفٍ

بمكابدةٍ يوميَّةٍ منذ الصغر، فلا يتمّ تعلُّمُ حِرفةٍ أو صناعةٍ إلَّا في وقت مبكرٍ من الطفولة، وهذا ما تفعله ذرِّيَّةُ عائلته، فكلّ شيءٍ يبدأ باكرًا.

أراد الرجل الآتي من البحر معرفةَ ما لديه وما يحمل من لآلئَ مختلطةٍ في جِرابٍ مخمليٍّ ممتلئ، بعد جمعها خلال عدَّة أشهر، وها قد حان الوقت ليبيعها استثمارًا، ولا بدَّ أن يعرف أنواع ما يبيع. يفتح نسيج الجراب المخمليّ، ويمنح الطبيب مجموعته، وقد رصدَ على الفور بين مجموعة اللآلئ لؤلؤةً هرمةً كبيرةً اسمها «راس» بأغلفتها المبهرة، تسكنها رؤوسٌ ناعمةٌ تراكمت في سنوات غشائها أسفل غطائها الزخرفيّ، ولكنَّها من النوع الذي لا ينكسر مهما كانت، ليضعها جانبًا، ثم تأمَّل دانةً بلا بريق، مُقرِّرًا حاجتها إلى التنظيف ببودرةٍ خاصَّةٍ، ثم أمسك بـ «تبابة» ومسح عليها بين السبابة والإبهام.. وهكذا حتى توقَّف الطبيب قليلًا وهو ينظر للبقيَّة المختلطة من الحُبيبات النقيَّة، قائلًا:

تحتاج فرزًا بعد غربلة.

يعود ليُعاين كلَّ حبَّةٍ على حِدَةٍ، يرفعها أمام عيْنه في فراغ الضوء، ويُعلِّق عليها:

«هذه من الخليج العربيّ وهي الأجود بينهم، فمياه الخلجان متمرِّدةٌ منذ أن خرجت من أحضان المحيط نحو اليابسة، مياهٌ برَّاقةٌ شكَّلت لنفسها وجودًا خاصًّا، والتمرُّد فعل

المبدعين، واللآلئ تبرق من العناد.

ثم أخذ يتفحَّص لؤلؤةً تلو أخرى مُعلِّقًا بقوله:

هذه من لآلئ البحر الأحمر، وهذه من بحر جزيرة سوقطرة، أمَّا هذه فمن بحر حافون بين اليمن والصومال، أمَّا هذه اللؤلؤة السوداء فعلى الرَّغم من ندرتها تبدو ميِّتةً مُنطفئة السطح، لونها غير صافٍ، وسوف يتشقّق سطحها بعد عامٍ من جلستنا هذه.

يرفع لؤلؤةً أخرى، ويقول:

هذه «خليجيَّة»، وهكذا.. حتى كشف عن أصول المجموعة كلّها، مُعلنًا أنَّ أغلبها خليجيَّة الموطن.

ثم بعد فحص اللؤلؤة الأخيرة، قال: «هذه اللؤلؤة الطبيعيَّة كبيرةٌ جدًّا، وستُباع بالسعر الذي تستحقّه لرغبة الجميع باقتنائها، بعد علاجها فقط، أنظر إلى سطحها، إنَّ لها وجوهًا مُتعدِّدة».

صمتَ قليلًا، ثم أضاف:

«لديك الكثير من المختلط والهجين، من الاستدارة الكاملة والمصطاد من أعماق الخليج الغربيَّة، ولديك حُبيباتٌ خفيفة الوزن تشوبها الظلال، قُنصتْ من خليجٍ ضحل، لكنَّ الوحيدةَ صاحبة المروءة المُقنعة وبلا لمعة هي الدانة، وهذه تحتاجني لأقشِّرها بأدواتي لتتلألأ وتتلوَّن كأخواتها».

أجاب الرجل وهو ينظر إلى الطبيب بسعادةٍ، يكاد ينشده شعرًا:

«نعم، ولا أحد سواك يفعل ذلك أيُّها الطبيب المستشار «الشاغول»، والمؤرِّخ.. يا مَن يميِّز موطن اللآلئ وسلالتها من بحرٍ ومحار، وكلّ لؤلؤةٍ من عمقٍ وقاعٍ دافئ».

أراد الطبيب إنهاء يومه بلطفٍ مع ضيوفه الجالسين، فقال:

نعرف أنَّ أصل اللؤلؤة في القوقعة، رملٌ أو حشرة، لكنْ بعيدًا عن العلم علينا أن نؤمن بخرافتنا الخليجيَّة الأولى، خرافة بحرنا القديمة والتي تقول عن اللؤلؤة:

«في عتمة الليالي الماطرة، يطير المحار مُرتفعًا فوق سطح البحر المُظلم فاتحًا فمه مُلتقطًا قطرات الندى والرذاذ، لينشئ اللؤلؤة الخليجيَّة الخالدة».

# 37

أُغْلقُ دفتري، وأتمدَّد مع هدوءٍ يعمُّ الدار، هدوءٍ لا يبدِّده سوى أزيز حشرات الصيف. أُغلق جفنيَّ لأستمع إلى نشيجي دون بكاء، ودون ندب، كما ندب المجنون بعد أذان الظهر، فيتَّصل ندبه بأذان مؤذِّن الشندغة وصوته الصادر من أنفه، حيث نَفَسُهُ القصير يتمُّ قوله «حيِّ على الفلاح» بجرسٍ مُجلجل، مُنهيًا الأذان بالشهادة مع همسِ حزنٍ وشعورٍ بالعطش.

أعود لمخاطبة قلبي فيؤكِّدني عاشقةً، ومعشوقي يعرفني ولا يعرفني، لكنَّه بقي حُلوًا ومتربِّعًا في مرآة عينيَّ، إنَّه صاحب الإقدام والشجاعة كما رسمته، ولكنْ أعود لقلمي الذي تركته قبل قليل، فما يزعجني الآن هو عدم شعوري بالفرح بعد انتهائي من كتابة قصَّة اللآلئ، وهو إيقاعٌ غامضٌ

أربكني. فهل هو الحُبُّ الذي أخذ يسيطر عليَّ وعلى دهشتي وقلمي؟

خبَّأتُ المُفكِّرة، ولم أشأ العودة إلى حكاية طبيب اللآلئ، ولا إلى تغيير نصوصها من أجل المزيد من التشويق، ولا إلى تغيير نهايتها، خاصَّةً بعد اجتياح جائحة الكرى في قيلولة النعس. وما أجمل انفتاح فم على سعته لولا صرير بابٍ أيقظ عويله جفنيَّ، كان ذلكً هو باب غرفة مكتب عمِّي، إنَّ بعض الأبواب تُعلن عن داخلها وخارجها، إنَّه بابٌ فاضحٌ يقع بين غرفتي وغرفة نوم عمِّي وزوجته مع طفليْه، هو باب غرفة مكتبه. وها أنا الآن ضمنتُ خروجه لموعد الغداء. كانت فرصةً لدخول كنز بيتنا ورؤية ما ورثناه من جدَّنا ووالدي، إنَّها غرفةُ الذاكرة الموثَّقة لسلالةٍ من سلالات علماء البحر.

# 38

تسلَّلتُ إلى المكتبة بعد أن فارقتها لسنوات، وقد بدت لي كما هي مبعثرةَ الأوراق على سطح طاولةٍ كبيرةٍ غليظةٍ وقزمةٍ من خشبٍ ثقيل، ثمَّة مخطوطاتٌ مُنسَّقةٌ على رفوفٍ مُغلقةٍ بأبوابٍ من زجاجٍ وبإطاراتٍ صلبة. كلُّ شيءٍ مؤطَّر سوى قلبي الذي حلَّق في مكانٍ ما على الطاولة وسط الغرفة، وقد لاح ظرفٌ مفتوحٌ برسالةٍ مقروءةٍ تُركَتْ بإهمال، حملتها لأجد على الظرف اسمي الكامل، واستراحت الورقة في راحتي، ودهمني الذهول:

لِمَ الإخفاء والرسالةُ لي وقد مضى عليها شهرٌ، حيث اليوم هو 18 من أغسطس 1969، ما يعني أنَّه قد مضى عليها شهرٌ كامل، وقد تمَّ خرقها وقراءتها. كانت المُرسِلة هي صديقة دراستي هند بنت سالم، أرسلت لي من حيث بعثتها الدراسيَّة في بغداد، كان اسمها وعنوانها على الطرف الآخر من الظرف.

ويبدو أنَّ عمِّي لم يسلِّمني رسالتها. فأيّ قهرٍ هذا وأيّ سطو! كان خطّ هند جميلًا كما عهدتها منذ أيَّام المدرسة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

إلى الغالية روزه بنت المرحوم عبد الله والمرحومة غاية.

تحيَّتي الطيِّبة لكِ من بغداد عاصمة العراق العربيّ.

منذ فراقنا المدرسيّ وأنا في غاية الشوق لكِ، أحمل عروبتي معي وقضيَّة المكان بنهضةٍ تملأ فكري، هنا حيث أدرس وأجتهد لأرتقي بنفسي، وأتذكَّركِ حين أقرأ في مكتبة الجامعة من دون مَللٍ، مُسترجعةً أحاديثك ومطالعاتكِ المستمرَّة، وأرى أنَّ ما ينتظرنا هو الإصلاح والأمل، كفتياتٍ ناهضاتٍ بعقولنا وسط الرمال ومدن الساحل المتاخمة التي يأبى بعضهم الاعتراف بها، ومع ذلك لم يعد يعنينا سوى النهوض بها ومعها.

أمَّا الحياة في بغداد فمتقدِّمة، ولي فيها الكثير من السعادة. هنا النهضة قائمة، وكم أحبّ ذلك وأتوق لإماراتنا التسع مثلها. لكنَّ الحقيقة يا روزه، يا صديقتي الصدوق، أريد أن أبوحَ بأمرٍ آخر يحصل معي في الجامعة. فثمَّة شابٌّ مهذَّبٌ، هو طالبٌ مُتخصِّصٌ في الأدب الإنجليزيّ مثلي، وهو شاعرٌ موهوبٌ ومشهورٌ في الحرم الجامعيّ، أراه يراقبني على الدوام، يتأمَّلني. ومن عادة إدارة الأنشطة الثقافيَّة هنا إقامة بعض الأمسيات الشعريَّة للطلبة، يدعونه لإلقاء قصائده، ليدعوني بدوره مُلحًّا بأناقةٍ وأدبٍ على حضوري، بعد أن أصبحَ مُعلَّقًا

بحبال شعري الفلفليّ الغزير، وبلوني القمحيّ، كاتبًا كلّ ذلك على أوراقٍ صغيرةٍ، ينظم أبياتًا قصيرةً غزليَّةً يُعبِّر فيها عن جاذبيَّتي، ولكنَّه يا روزه شاعرٌ باذخ الجمال، يصف حالته المُتجدِّدة في قصيدةٍ تلو قصيدة، وهو أمرٌ في غاية التوتُّر بالنسبة لي.

كم هو رقيقٌ معي! وقد لاحظ الجميع ذلك، وبارك هذا الشعور فيه. والشاهد أنَّه مُزدحمٌ بي، ومتأثِّر بعروبتي البعيدة المنسيَّة. وأصدقك القول إنَّني لا أراه يتوهَّم أدبًا، كما أنَّ قصائده التي يرتِّلها يطهِّر بها روحه العذبة إلى درجةٍ لا تُصدَّق، وبرقَّةٍ تطير بي، بل وأكاد ألتقطني وأنا أتداعى من فرط الحبِّ. لقد حرَّك قلبي بلغته الشعريَّة وأدب حديثه معي، وما يجري بداخلي من مسٍّ لا يمكن مقاومته، لكنَّني يا روزه بدأتُ أخاف كلَّما تذكَّرت القبيلة، لذا وحتى اليوم لم أبح له بشيءٍ، فما العمل؟

روزه الغالية، هذه أخباري كما أرغب بالاطمئنان عليكِ برسالةٍ منك، فبعد أيَّام عزاء والدتك رحمها الله وسفري إلى العراق انقطعت أخبارك عنِّي، ولم أسمع لكِ أخبارًا بعدها سوى أنَّكِ ببيت والدك في دُبَيْ.

في انتظار ردّك، والسلام ختام.

**صديقتك الصدوق هند بنت سالم**

**١٨ يوليو ١٩٦٩**

# 39

قرأ عمِّي الرسالةَ إذن. وبلا شكّ، أنَّني الآن ابنةٌ متمرِّدةٌ وقليلة التهذيب، وصديقاتي من الجريئات المُتعلِّمات اللائي خضن تجارب أفكار النهضة العربيَّة المنفلتة. دَقَّ قلبي بشدَّةٍ، ورَضَّ صدري، لأتأمَّل فكر عمِّي بعد كلِّ هذا المكتوب الذي قرأه، إذ لا بدَّ أنَّه فهمَ وبدليلٍ قاطعٍ أنَّ المدرسة مَفسدةٌ للبنات، وهذه الصديقة الخارجة من الملَّة بالطبع لن يرضى بأن يُعطيني رسالتها لامتلاكه الرعاية الأبويَّة، كي لا تكون ابنة أخيه روزه صاحبة تجارب فاسدةٍ مثل هند، أو ربَّما فكَّر بأسرارٍ لا تُبشِّر بالخير! أخشى أنَّني خسرت ثقته. مضيت مُتخشِّبةً إلى غرفتي وسريري، وها قد خرج الضوء من الجصّ النباتيّ بأشكاله المُجسَّدة أرضًا، مُعلنًا الزوال بشمسٍ مُنْتَصِفة. أُفتِّش عن هواءٍ باردٍ أسفل برج الهواء لأُنهي شحوبي، فلقد أعياني التفكير وأثقلَ جسدي، وعليَّ الاستعداد للغداء مع الجدَّة وعمِّي

الذي بتُّ أعرف الآن ما يجول في فكره عنِّي.

في المندوس الممتلئ، كانت كندورة بونسيعة البنفسجيَّة مرتَّبةً في ركنه الأعلى، وقد أوحت لي خطوطها الفضِّيَّة ببعض البهجة، أشحت عنها بوجهي إلى قماشٍ قطنيٍّ مشهورٍ بقطن مكَّة يصلح للزاهدات. أستمرُّ في البحث أسفل الملابس التي تمَّ تربيعها فوق بعضها، وجدت «كندورة» من قماش بو قليم، أخضر ومُقلَّم بأعمدةٍ سوداء ناعمة، يوحي بالزهد الشديد ولا بديل، ارتديتها مع سروال الباذلة، مُقطِّرة ملبسي بقطراتٍ من عرق المسك والورد، وقد أزلتُ كلَّ ذهبي مُكتفيةً بقلادة النثرة وبساطة زخرفتها بِقِصَرها حدَّ الرقبة، وخاتم الشاهد على شكل دمعةٍ مُخصَّصٌ للنساء المُتقدِّمات في السنّ، وهو ممَّا آل إليَّ من ذهب أمِّي وإرثها من جدَّتي، فضلًا عن مسبح في يدي.. وهكذا، لأوحي بما اكتسيت بالورع والتنسُّك أمام عمِّي الذي سيكون في جلسة قهوة العصر، لكنْ ثمَّة وقت، فما زال وقت الغداء مُبكِّرًا، وهناك ما يشي لقلبي بأن أفعله، وكعادتي ما إن ارتميت على سريري، هبَّتْ من برج الهواء رياح البرادي الخفيفة التي عانقت وجهي، ومضتْ بنسيمها ليصفو كلَّ ما بي. كانت إشارةً فاتنةً لم أقاومها للردِّ على صديقتي هند قبل موعد الغداء. أخرجتُ دفتري وأنا على علم برسالتي هذه التي لن تُرسَل أبدًا، وستقبع في يوميَّاتي التي لن تجد لها قارئًا أبدًا، إنَّها رسالةٌ ستُرمى ولو بعد حين.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

السلام عليكِ يا هند مع التحيَّة الطيِّبة. . . أمَّا بعد،

من صديقتك روزه في منطقة «الشندغة» الغاصَّة بمنازل أكبر العائلات، وأبراج الهواء المُطلَّة على أزقَّتها العالية الملتوية، إلى منافذ تناغي الأجساد العابرة، من إمارتي دُبَيْ المُتحرِّكة في خوْرها كبحرٍ صغيرٍ جيَّاشٍ مُتلاطمٍ يموج فيها على الدوام، إلى بغداد التي أعرفها ولا أعرفها، حيث تبدو لي كحلمٍ شهيّ.

صديقتي هند، منذ رحيلنا من مدرستنا في الشارقة، وأنا أشمُّ روائح المُدن العربيَّة كلّها من خلالكم، فلا أمل لي برؤيتها، ولا بأس يا صديقتي، فالآن صار آنذاك، ومن آنٍ إلى آنٍ يأتي كلُّ شيءٍ بأوانه، والمهمّ الآن هو أنتِ وما لديك من حاضر، وما ذكرتيه في رسالتك عن جمال ما تعيشين، وعن شعرك الأسود المنكوش، ها قد أطلقته في هوائهم النهريّ، تخيَّلتك تمامًا وأنت تمشين نحو الجامعة والكتب في حضنك، أمَّا ما ذكرتِ عن زميلك الشابّ الشاعر المُتيَّم، فلا بدَّ أن رأيتِ فيه قمرًا شهيًّا صالحًا للحُبِّ بعد كتابته بَيْتَيْ شِعرٍ عن شَعرك الفلفليّ، فأرجوكِ يا صديقتي الغالية أن تتعلَّمي أصول الدلال. تعلَّمي ألَّا تُبيني رعشة يديْكِ، وارتجاف قدميْكِ، وضعي منذ الآن زهر النعناع الأخضر في طرف الخصلة عند الأذن اليمنى، لتستهدفي قصيدةً أطول وأجمل، وإن سألكِ لِمَ النعناع، قولي له إنَّه هُويَّة أبواب منازلنا، حينها ستلهمينه باغترابك ربَّما أكثر من ورود بغداد الحلوة التي اعتاد عليها!

ولتعلمي، صديقتي هند، أنَّه لا أمل لكِ في أن تتزوَّجي

عراقيًّا جامعيًّا جميلًا وشاعرًا يدرس معكِ، فكلُّ هذه الصفات على ألسنة أهلنا وقبائلنا فَخرٌ. يقولون عراقيّ بفخرٍ، وبأنَّه عربيٌّ عزيزٌ علينا، إلَّا في حالة الزواج منّا، يتحوَّل مباشرةً إلى خصم ومزاحم، ويرتدّ ليتقهقر المعنى لدى الآباء في العائلة كي يغدو منافسًا لأبناء عمومتك وقبيلتك وصنفك وذرِّيَّتك من غير وجه حقٍّ لأنَّكِ أنثى.

والآن، ما عليكِ سوى إخراج القصائد من قلبه لتبتهجي، انشرحي بها وهي تجتاز قلبك، إنَّها النشوة النادرة وبحبوحة الأبيات الماطرة، دعيها تُبلِّل شَعرك الفلفليّ الطائر والزاحف مع رياح اللهفة دون اتِّجاه، فالشِّعر العراقيّ نَسَبٌ مُمتدٌّ من أنهرٍ بعيدةٍ لا يُكتَب على ورقٍ عاديّ.

العراقيُّون أجمل العشَّاق يا هند، شعراؤهم يعشقون بحزنٍ عذب، وسكونٍ عثروا عليه حتى سكنهم إلى الأبد، فكوني عاشقةً يا هند، وتعلَّقي به، من دون أن تُبدي له ذلك كثيرًا. كوني عاشقةً يا هند، فليس كالعشَّاق معشرٌ تمنحهم الحياة تجربة السلام كاملة، يُحلِّقون بأجنحةٍ ثملة، ليصمتوا صمت الأنبياء، ويصبروا صبر الأوَّلين. وأخيرًا يا هند، أقول لك إنَّكِ إن عشتِ ذلك ستصبحين من فرط الغرام أجمل كائنات الأرض، فاعتني بِشَعركِ الفلفليّ واغسليه جيِّدًا.

**روزه بنت عبد الله**

**بلا تاريخ**

# 40

المشي في طريق الليوان الطويل، ذهابًا وإيابًا بفعل السأم والضجر، يجعلني أفكِّر وأتلمَّس في نفسي أمرًا آدميًّا نافعًا، فلستُ من اللائي يجرين خلف اللذَّات، كما أنَّني لم أجد نزعة التمتُّع في نفسي، ومسار حياتي قد تمَّ هتكه، فلستُ من يخطِّطه، وليس لي سوى موهبتي في الكتابة، وهذه لن أسمح لها بالصدأ، سوف أقاوم هذا الفراغ الذي وضعوني فيه أمام المسار المُنعرج، فليس لي سوى تنمية استعدادي الفطريّ في كتابة اليوميَّات رغمًا عن كلِّ ما يُحيط بي.

وسط الرُّواق ومن خلف نافذة جدَّتي، يأتي فجأةً صوتٌ تسمَّرتُ له مذهولةً بوعيٍ كامل، لأستمع إلى همسٍ شاعريّ. آه من صوته، هو هنا إذن، شقيق زوجة عمِّي، إنَّه هو بعيْنه الوحيدة التي عشقتُ، هو هنا وأنا آخر العارفين! فمن أكون

ليخبروني بقدومه؟ أشعر بالتلاشي والاضمحلال كاللاشيء وككلِّ شيءٍ. كم أصبحت أتلهَّف لرؤيته، كم ازداد شوقي إليه مع الوقت الذي انعرج بي إلى آخر الظهيرة! فهل أتى للسلام أم لتناول الغداء؟

فتحت النافذة بيسرٍ وبطء، فلاح لي جالسًا في الدائرة ذاتها، يتحدَّث بثقةٍ عاليةٍ، بينما يتحلَّق الجميع من حوله، يا لعيْنه الوحيدة، كسروه يا روزه ولم ينكسر، إنَّه رجلٌ والرجال أيضًا يكسر بعضهم بعضًا. كوني صلبةً، فقد تستفزَّنا المواسم وتُغرقنا الحياة بجريان مياهها الملوَّنة، حتى تأتي النجوم وترفعنا، وكم أخشى انطفاء النجوم!

بدا متأثِّرًا بحديثٍ من أحاديثه الموثَّقة وهو يقول: وعلى ذمَّة هجرة «البحارنة» من البحرين في 1917 إلى جزيرة «لنجة» الإمارة الخليجيَّة الفريدة في معمارها الخاصّ، وإعادة العُهدة الفانية بعد استيلاء إيران عليها وسجن شيخها.

ثم يعود ليقول: إلى جزيرة المحمَّرة الأحوازيَّة عند شطّ العرب، وكيف تلوَّن الإنجليز ألوانًا لا حصر لها، واعتراف بالنكوث، وبكفالة السلام والتحيَّة من الصباح إلى المساء لهؤلاء الشقر، وكلّ تلك الأحاديث الهامَّة، وأنا أحاول الثبات على شيء.

# 41

يمضي الحوار في غرفة جدَّتي نحو الضريبة:

ها هُم قد أتوا من هنيام إلى دُبَيْ، لأضيع في عيْنه وهو يتحدَّث بأنَّنا الجيل السابع عشر منذ نكسة البرتغال، نعم لقد توقَّفنا هنا وانتهى الأمر، لكنْ... ويصمت ليتحدَّث عمِّي الجالس في طرفٍ لم أره، قائلًا:

«لكنَّنا اليوم فتحنا طريق الإعمار والبناء، وها هو خليج الخوْر ينتصر على الخليج بجزره كلِّها».

يُعلِّق ذو العيْن الوحيدة قائلًا:

«أهالي الجزر منذ تلك السنوات لا يبيتون إلَّا حذرين، ولا يكسب ثقتهم أحدٌ إلَّا بالاحترام بعد فترةٍ من التعامل. لقد بات أغلبهم يأتي إلى دُبَيْ بأمواله للاستقرار فيها، وما

زالت إيران مُستمرَّةً في التحكُّم ببحر الخليج لابتلاعه جزيرةً بعد جزيرة، وطرد حكَّامه العرب، وما زال الإنجليز يتغافلون ويتجاهلون ذلك عمدًا كأنَّهم لا يرون شيئًا، لكنَّهم في الحقيقة يعاقبون أصحاب الأساطيل الضخمة التي حطَّمت سفنهم ومعنويَّاتهم، وأصبحوا مضطربين في الخليج، وها هم الآن يُعاقِبون ويُكافئون».

يُجيب عمّي:

«فلننسَ الأمر، لدينا اليوم خليجنا الخاصّ، ها هو أمامكم، خوْرنا السخيّ مذ توسيعه وتسهيل حركة مرور السفن الكبيرة، استطعنا العبور فيه، وأصبح لدُبَيْ أهمِّيَّةٌ بعد بناء جسرٍ بين البرَّيْن. هل تذكرون حين كنَّا نهرول هناك صغارًا، نحفر مناطق الخوْر الضحلة لنملأ شواطئها حجرًا ورملًا، من أجل صنع رصيفٍ مناسبٍ لنا. ها هي بضائعنا تأخذ طريق الأمان لتفريغها شحنًا على أرصفةٍ مُمهّدة».

أجابه:

لقد أصبت، إنَّ العبرة اليوم ليست بالسيطرة على المساحات الشاسعة وإهمالها، بل بتشغيلها وإن كانت صغيرة.

كان ينظر إليَّ، حيث لم أتحرَّك هذه المرَّة، فثمَّة شيءٌ لا بدَّ من تأمُّله، وواجبي تجاه قلبي أن أُعيد له مرآة الحُبِّ على عجل، كان ينظر بقوَّةٍ كأنَّه يتآمر عليَّ بعشقٍ متبادلٍ، ليصلني

نبضه في حينه، وكانت عيْنه الفاتنة تلمع بشدَّة.

تنحنح وسَعَلَ قليلًا وهو ينظر في عينيَّ مُستأذنًا للخروج، ما جعلني أُهرول مُسرعةً إلى غرفتي من جديد، فهو لن يمكث للغداء، هل توهَّمتُ نظرته لي؟ هل خطرتُ على باله أم كانت طعنةً نافذة؟

ارتحلتُ إلى عالمي مسافرةً بين مفرداته التي صاغتها أذناي لأصوغ بقلمي وأُعنون حوارًا:

## مسرحيَّةٌ حواريَّةٌ بين مؤرِّخ مجهولٍ وجزيرة هِنْيَامْ الخليجيَّة

تتعدّد المرويّات الشفهيَّة، وتبقى روايتان:

يقول المؤرِّخ المجهول:

توارى المواطن «الهنيامي» حتى استتر وحيدًا مَنسيًّا في جزيرته الصغيرة المسترخية في جبالها الأفقيَّة المقلَّمة المطلَّة على خليجٍ أزرق. جبالٌ في أحضانها كهوفٌ مائيَّةٌ ضيِّقةٌ ومالحةٌ وبقايا من عويلٍ لصخورٍ بقمم قزمةٍ ومشذَّبةٍ من صفعات كفوف الريح وبرد العجوز ولطم الزوابع المجنونة على جسدها إلى تصفيقٍ مُتواصلٍ للأهوية على أرضها.

جزيرة هنيام:

ولكنَّني لم أيأس ولم أشتبك مع الطبيعة، بقدر ما تناغمتُ مع شكلي ولوني.

المؤرِّخ المجهول:

نعم، ربَّما لأنَّكِ اختبأتِ بصبرٍ أسفل خصر أكبر جزيرةٍ في الخليج، والمُسمَّاة بمسمَّياتها الوافرة والآفلة، من الجزيرة الطويلةِ وجزيرة قاسم وجزيرة جاسم، وكلّ الأسماء التي تستَّرتْ في مُسمَّى جزيرة قِشْمْ.

جزيرة هنيام:

ولعلَّك نسيت بأنَّه لم يكن لي من عمل سوى الدفاع عن خصر هذه الجزيرة الطويلة.

صمت المؤرِّخ المجهول.

جزيرة هنيام تتكلَّم بحسرة:

تأبَّطني الأغراب بلغاتهم، فأصبحتُ وطنًا بلا صوت. يا لزوايا تاريخك المشطوب أيُّها المؤرِّخ المجهول.

المؤرِّخ المجهول:

لكنَّكِ من أهم الجزر في الخليج أيّتها المواطنة الهنيامية.

جزيرة هنيام:

وعلى الرَّغم من ذلك ما زلت مُغيَّبةً منذ نزول الوحي في معانٍ وطنيَّة، لقد تناثرت الأفكار ووقع التصادم في رأسي بين ثلاث لغات منذ أن ازدحموا في بحري الخليجيّ المهول بالتهديد لسلب سُفني، ألا تذكر أيُّها المؤرِّخ لتكتب، كيف

أسروا سفينتي العربيَّة الهنياميَّة أثناء رحلتها إلى دُبَيْ.

المؤرِّخ المجهول:

كان تهديدًا سافرًا من سفن الضفَّة الشماليَّة.

جزيرة هنيام:

بل تخلَّيتم عنِّي.

المؤرِّخ المجهول:

تخلَّى عنكِ الإنجليز ببرودهم، ولم يتدخَّلوا في بحرٍ لا يريدون فيه مُعضلةً، لكنْ بالمقابل، هاجت مئات الشخصيَّات من أهل دُبَيْ، وتعالت أصواتهم بالتهديد والوعيد من أجل سفينتك يا هنيام، ومن أجل من فيها من أقربائهم، ليضطرب البحرُ حتى تحوَّل الإنجليز فجأةً إلى أصدقاء، وإن كانوا مُهدّئين وملوّنين، لكنَّ السفينة عادت بالأسرى إلى أهلهم في دُبَيْ، بعد خشيتهم من اتِّساع الحرب في البحر وأذى منافعهم.

جزيرة هنيام:

والنتيجة أنَّهم تركوا المفاوضات مع الفرس إلى اللاشيء، ومضت الأسطر عابثةً بي، نتيجتها انهزاماتٌ صامتةٌ بعد إبرام الندامة، وها هو الزمن يمضي بي مُشوَّشًا.

المؤرِّخ المجهول بجدِّيَّة:

تتحدَّثين يا هنيام بلغةٍ شاعريَّة، دعيني أكتب لكِ بوصفي مؤرِّخًا ما حدث منذ ذلك اليوم:

في عام 1928، سافر أمير إمارة هنيام إلى مكَّة لأداء فريضة الحجّ، فاستغلَّ الفرس في ضفَّة الشمال الخليجيّ غيابه، وقاموا بإرسال سفينةٍ حربيَّةٍ رست في مراسيكِ لتجبي الضرائب من سكَّانك، فاشتبكتما معًا بثلاث لغات، فرس وعرب وإنجليز، والنتيجة أن تمَّ أسر سفينتك العربيَّة الهنياميَّة الخارجة للتوِّ من هنيام، وسحبها إلى جزيرة إمارة لنجة.

جزيرة هنيام غاضبةً:

تقول سفينة هنياميَّة وتمضي! كانت تحمل سيِّدات هنيام وأطفالها، وتمَّ سحبهم إلى إمارة لنجة المسلوبة قبلي.

المؤرِّخ المجهول:

لا أنكر ذلك، بل وقع صِدامٌ بين الضفَّة الشماليَّة والضفَّة الجنوبيَّة، فالأمير ابن عمٍّ لأمراء دُبَيْ، والأسوأ هو مقتل مدير الجمارك. حينها، وصلت الأخبار إلى دُبَيْ، فحدث هياجٌ كبيرٌ بين الأهالي الذين عقدوا النيَّة على مهاجمة أيَّة سفينةٍ من سفن ضفَّة الشمال في الخليج، حينها تدخَّل الدخلاء الإنجليز في الأمر خوفًا من اتِّساع العمليَّات الحربيَّة بحرًا، وما ينتج عن ذلك من تهديد مواصلاتها البحريَّة، حتى تمَّ إعادة الأسرى إلى أهلهم في دبي.

جزيرة هنيام معاتبة:

«أيُعقَل أن يتخلَّى عنِّي العرب في غفلة؟ ربَّما تغافلوا عمدًا بعد تهاونٍ وتفريط، لقد سقطتُ مع الجزر تباعًا، وأنا هنيام التي صانت أرضها منذ مملكة هرمز، بل أنا هنيام المُناصرة لعشرات العائلات بسلالاتها اللؤلؤيَّة المفهرسة في داناتها بالتفصيل، في أبوابٍ، في فصولٍ، في أمواجٍ برَّاقة، فيا للانكسار بعد فتح محاري لتختفي رواسب الدُّرر، أيُعقَل أن أنحني؟ أيُعقَل أن أنضمَّ إلى صفوف أعضاء الشطآن المسلوبة؟ هل أصبحتم تعانقون البحر دون ضفاف؟ ماذا أنتم فاعلون بي سوى نسياني؟»

المؤرِّخ المجهول:

لم يخرج حتى هذا اليوم قلمٌ ليكتبكم.

جزيرة هنيام مُستنكرةً:

وماذا فعلتَ أنت؟ ليتك كتبتَ وأعلنت اسمك أيُّها المجهول لإيصال ما يجري في إماراتٍ وجزرٍ وبقايا السواحل العربيَّة إلى المحاكم الخارجيَّة، كما فعلتْ الهند وتحرَّرت. ألم ترَ ما فعلوه بعيونٍ مُغمضة! أمَّا عنِّي أنا هنيام مكسورة الجناحيْن، فها أنا أغترب في مكاني مع بقايا ظلال وطواويش، ولم تعد جمال السفن العربيَّة وقوَّتها الدفاعيَّة كما كانت، لقد دفعتها الرياح الغادرة إلى البحر مُنزلقةً على الرَّغم من الحبال المُثبَّتة على المراسي، من دون أن تصل.

المؤرِّخ المجهول خلفها صامتٌ بكسل.

تُكمل جزيرة هنيام، وتقف وسط المسرح لتواجه الجمهور:

أنا هنيام الشاهدة على أفول كلِّ الأمبراطوريَّات. أنا هنيام التي شهدت يوم استطاع من استطاع من سكَّاني الهروب إلى رؤوس الجبال والإمارات الأخرى على السواحل، حينها بدأ الشماليُّون الفرس بالتحكُّم، فطال المكوث، وخرجت أصوات النهامة، وبدأت الأمواج بالطنين، لكن يا لسرعة النسيان!

أنا هنيام التي رأت جور الزمان حين تسلَّل الفرس بأرضي للحصول على ضريبتي، ولم يتدخَّل الإنجليز ولم يتشابكوا بين صخوري بدعوى أنَّهم لا يريدون حربًا في الماء تودي بمصالحهم، ثم ليأخذوا من بعد ذلك حاكمي ويسقطوه في أمَّة الفُرس كالمحار، ويهبط شحوبُ الخبر على رمالي كأرملة. لقد تنازلت مراياي العاكسة عن رؤية براءة لآلئها، فكان الخلاص، وخذلان اللغة منذ التاريخ الحزين 1928، حين أصبحتُ نسيًا منسيًّا. هكذا تكتبون أيُّها المؤرِّخون.

انطفأ ضوء المسرح، وصمتت الجزيرة، وصمت المؤرِّخ المجهول في الظلام.

# 42

حدَّق بي عمِّي طويلًا أثناء وجودي مع جدَّتي حيث جلستُ مُتربِّعةً عمدًا، كزاهدةٍ أسرح في صمتٍ بليغ مع التسبيح بمسابحي في حوقلةٍ مهموسة. يمضي الوقت ويتأمَّلني حتى رمقني عمِّي بنظرة اطمئنان على زوال كلِّ ما التصق بي في عينيْه من ثقافةٍ دخيلة، فخرج من البيت بعد أن دخله الأمن والسكينة، بعد أسابيعَ من البرود في التعامل معي، وقد بقيتُ كما أنا روزه الصامتة التي تستغفر من رؤوس أصابعها ودوائر مسبحها، وأتوهَّم أحيانًا عالمي وأنسى لأصنع النقيعة لأصابعي وأنا سارحةٌ، لا أحد سوى جدَّتي كان يلاحظ ذلك، وتنكره عليَّ قائلةً:

ـ «روزه».

ـ بأمرك جدَّتي.

ـ نقع الأصابع فعل مُشينٌ، أنظري إلى مفاصل أصابعك، ستكبر كأصابع الرجال إن اعتدتِ فعل ذلك.

ـ بأمرك جدَّتي.

عطستُ، فتبسّمتْ جدَّتي مؤكِّدةً بأنَّ أحدهم يُثني عليَّ بخير، لكنْ بعد بضع دقائق غصصتُ وشرقتُ، لتعلِّق من جديدٍ:

ـ ثمَّة مَن يذكركِ بسوء، وإن شاء الله ليس سوى عدوّك.

ـ لا أعداء لي يا جدَّتي.

نَهَرتني مُستنكِرةً ذلك بقولها:

ـ لا يوجد إنسانٌ بلا عدوٍّ يا روزه.

نهضتُ من مكاني بصمتٍ لأُنهيَ الحديث كلّه بحملي الدلّة وصبّ القهوة، مُختتمةً جلستي ومهرولةً إلى غرفتي، والوقت في السماء شفق، والمجنون ينادي بأعلى صوته: حقًّا.

# 43

قبل أن أدلف إلى غرفتي، رأيت باب المكتب شبه مفتوح، وزوايا البيت خاوية من آثار أقدام أو أطياف وجوه، ناديتُ نفسي أنْ ادخلي بخفَّة، لعلِّي أجد شيئًا، وما إن دخلتُ حتى فتحت نافذةَ الزجاج في مخزن الكتب، مُتناولةً مخطوطةً بعد مخطوطةٍ، وإذا بكلِّ علوم البحر هنا، علومٍ من جداولَ للمكاييل والمقاييس والأوزان يستخرجون اللآلئ منذ أزمانها البعيدة. قبل انتكاستها المؤلمة، كان اعتزاز رجالنا من الربابنة وملّاك السفن بالنفس عاليًا، وكم كان يزعجهم الغرباء حين يصلون رصيف الخوْر ولا يميِّزون بين ربَّانٍ وصيَّاد، وبين حضريٍّ وبدويّ، وبين سركال وسردار، ونهام وجلّاس، وطوَّاش وغوَّاص. فيا لتفرُّع الثقافات! والمفارقة أنَّهم يصرُّون على اختزالنا في كلمةٍ واحدة: بدو.

غرفة المكتب مُضاءةٌ في بيتنا، والأثاث هنا يتوزَّع بين التكايا وسريرٍ صغيرٍ بسيطٍ لقيلولة عمِّي بعد انتهائه من القراءة، وثمَّة كرسيٌّ ضخمٌ يقابل التكايا، وها هو عمِّي قد أخذ رسالةَ هند بنت سالم ووضعها في ظرفها، ولكنْ أسفل الظرف ظروفٌ أخرى، منها ظرفٌ يبدو أنَّه مُرسَلٌ من دولةٍ آسيويَّةٍ تُعنى بالبضائع والتجارة، والآخر ملكيَّة، وظرفٌ أخيرٌ لي من معلِّمتي.

احترت في أمر عمِّي، إذ كيف يحرمني حقَّ قراءة مراسلاتٍ خاصَّةٍ بي! لقد عذرته فيما يخصُّ رسائل صديقتي هند لما كانت تحتويه من بوحٍ مثير. أمَّا فيما يتعلَّق برسائل معلِّمتي فلا عذر له. لامست الظرف، وتلهَّفت قراءة رسالتها التي أكَّدت لي أنَّني لستُ منسيَّةً كما اعتقدتُ. خبَّأتها بعنادٍ، وأخذتها معي إلى غرفتي.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تحيَّاتي لك عزيزتي روزه المتفوِّقة لغةً وأدبًا، والسلام عليكِ، أمَّا بعد:

أتمنَّى أن تكوني بصحَّةٍ وعافيةٍ حيثما أنتِ في بيت والدك أو زوجك، أكتب لكِ هذه الرسالة ولا أعرف ما جرى لكِ بعد الاختبارات، وكلّ ما أريد قوله إنَّه لم أُصادف فتاةً تحفظ الأبيات الشعريَّة الجاهليَّة عن ظهر قلب كما كنت تفعلين، ولم أعد أقدر على نسيان فتاةٍ مثلك؛ فعلى الرَّغم من أدبك

وخجلك، كنتِ تُلقين القصيدة كشاعرةٍ واثقةٍ على المنبر، أو كأنَّكِ وُلدتِ في عصرٍ عكاظيّ الشعر فتاةً داهمتها القصيدة وأنوثة المعنى، أو أنَّك انبثقتِ في فضاء مدرسةٍ عربيَّةٍ تنهض بحضورٍ حداثيّ، لتُبهري بالإلقاء، مع التقاطكِ دلالة كلّ كلمةٍ ومفهومٍ عن الفكرة الحرَّة في أعراضٍ أدبيَّة.

عزيزتي روزه، لم أتخيَّلك سوى شاعرةٍ تؤلِّف لا من أجل القافية والوزن بقدر تأليفها لمنطوقٍ جديدٍ تزيلين عنه الإبهام.

هل تذكرين حكاية امرئ القيس مع حبيبته وابنة عمِّه فاطمة، وكم كنتِ معجبةً بحكايته التي بدت لك خرافةً جميلةً من خلال قصيدته النابعة من عشقٍ واقعيّ، ولا أنسى أنَّكِ كنتِ تقولين لي:

«أبلة».. أشعر بأنَّني وُلدت في عصر امرئ القيس، لقد تعلَّقت بِشِعْرِه وزمنه. حينها كنتُ أشاكسكِ وأقول لكِ أخشى أنَّك متورِّطة في هوى امرئ القيس لا شعره. قلت لكِ ذلك لأنَّكِ تركتِ جميع الشعراء بعد قراءتهم، وثابرتِ عليه هو وحده.

عزيزتي روزه، ما زلت أعمل في المدرسة التي تتجدَّد كلّ عامٍ بفتياتٍ نشيطات، ولم أُصادف حتى الآن فتاةً تحبُّ الشعر مثلكِ، ولا فتاةً تكتب تعابيرَ بجمال لغتك. والآن، سأكتب لك، عنواني لكي تُرسلي لي عليه جوابك، لا تنسي

أن تكتبي لي قصيدةً يا شاعرة، أو حكاية امرئ القيس مع فاطمة، فحكايات حُبٍّ لهؤلاء هي مواقف أخلاقيَّة، اكتبيها بأسلوبك الغنيّ الذي أحببتُ وبتصرُّف منكِ، لطالما كرَّرتُ قراءة تعابيرك في دفاتر المدرسة، فقلائل من فهموا روزه.

وأخيرًا، أكتب لك كما كتب امرؤ القيس لحبيبته: أفاطم مهلًا. وأقول: أروزةَ مهلًا.

**أبلة شريفة**

**٢٨ يوليو ١٩٦٩**

# 44

أوجعتني رسالة الثناء من معلِّمتي، وجعلتني وكما وعدتُ نفسي أبكي بلا دموع. كنت على سريري أسفل برج الهواء برفقة رياح الغامز وهي تغمز قلبي بوجع البعثة المرسلة إلى البيت، وليت والدي الحنون وجدِّي الشاعر عاشا حتى هذه اللحظة ليتعاملا معي بوصفي كيانًا أنثويًّا مستقلًّا، ولهزمنا معًا أطماع عمِّي، وشتَّتنا أوهام جدَّتي.

كان أذان المغرب إشارةً لامستْ شغافَ قلبي لأهدأ، ولم يمرّ وقتٌ حتى أذَّنَ المجنون بطريقته:

الله أكبر الله أكبر

لا نخلة سوى نخلتي

ولا زوجة كزوجتي

الله أكبر الله أكبر

الناس فوق بعضهم بعضًا

الله أكبر حقًّا حقًّا الله أكبر.

# 45

ناح المجنون طويلًا، فتلاشى حزني أمام بكائه، وضحكتُ بشدَّة، ليتسلَّق صوتي عاليًا وساخرًا من برج الهواء وأنا أراقب ضحكتي وأسبابها، ضجَّت القهقهة في صدري مُستسلمةً حتى الثمالة، لم أقدر على الوقوف. كنت أنعم بفراش لَيِّن وأنا أكتب أذان المجنون بالحرف في صفحاته المُخصَّصة، مُستمتعةً بصفحاته الأخرى التي أخذت بالامتلاء.

لم أشأ الخروج من غرفتي، كانت نشوةُ البهجة تذكِّرني بعاشقٍ غمرني، فأينه الآن يا تُرى؟ يلوح لي طيفه كلَّ حين بعيْنه الوحيدة، وبشجاعة قوله مدركًا روحي لأدوِّنه، مكافئةً نفسي بقطراتٍ من ماء الورد ودهن العود لأفوح في أرجاء غرفتي، وألغي مزاجي الحزين ليموج بي عشقه، وأتوقَّد

ككاتبةٍ مثمرةٍ بكامل حروفي، وأتجدَّد بذرةً في مكانٍ ما، أنمو أسفل الشمس في خلجانٍ بلا شواطئ، ولا أشعر بي، لا أشعر سوى بأصابعي التي تُخبرني بكلِّ ما هو خياليٌّ في بِركة شِعر قريبةٍ تتدفَّق من فمي، وينتهي الأمر لأكتبني أيُّها الشفيف، وأُحدِّق فيك لا في مياه الملح ولا في دِلال الغلال، فشدِّيني إليكِ أيَّتها الكتابة وأنا في فراغ الصفحة، شدِّيني لأنبض. انغمسي أيَّتها الذاكرة في صفحتي المنسيَّة، كأبجديَّةٍ ملوَّنة الروح، حرَّةً وحمقاء أينما اتَّجهتُ، حيث الدموع بلا أغلال. أنقذيني وشدِّيني أيَّتها الكتابة، فأنا على قيد الحُبِّ:

السلام والمحبَّة والاحترام على مُعلِّمتي الغالية «أبلة شريفة».

التحيَّات الطيِّبات وبعد:

رسالتك أجمل ما تلقَّيت في أيَّامي هذه، وكم يؤسفني عدم ذهابي إلى البعثة مع زميلاتي، فقد توقَّف كلُّ شيءٍ بوفاة والدتي!

ممتنَّة معلِّمتي على رأيك، لكنْ لم تكن لي قصائد في أوراقي كقصائد أجدادي، بل حكاياتٌ عثرت من خلالها على شاعريَّة انسابت عليَّ، فأقرأ الأشعار وأهجِّئ التفاصيل فيها، وأمطرها من أجل قلبي المؤرّق بالكتابة بحبر القلم الحرّ وفكري المتعب بالذاكرة، لأكتب وأُشفى. وأثناء ذلك،

علمت بأنَّ حياتنا تنقصها حكاياتها الخاصَّة لتُروى من جديد بأسلوبٍ ساخرٍ كي تصبح موطنًا خاصًّا بنا وبمعانينا وأرضنا الغالية كلّ حين، لكنَّني أجد أنَّنا نحكي أنفسَنا بزيفٍ شفهيٍّ، وننسج طيفًا خياليًّا لنصدِّق. وها أنا أكتب ما أراه من زيفٍ، وأُحوِّله إلى قصَّةٍ واقعيَّةٍ مكتملة العناصر فنًّا وأدبًا، كما كنت تشرحين كيف نكتب القصَّة.

معلِّمتي العزيزة، دعيني أُلبِّي طلبك بكتابة حكاية حُندج وعُنيزة اللذين أحببناهما، فكم من الناس اليوم لا يعرف أنَّ حنْدجًا وعُنَيْزةً هما الأميران امرؤ القيس وابنة عمّه الأميرة الصغيرة فاطمة! وكم أُعجبنا بحرِّيَّة العرب في أزمانهم السالفة عبر حكاية كهذه، أنتجت أقدم وأجمل مُعلَّقةٍ شعريَّةٍ عربيَّة، ولكِ القصَّة:

بطلنا حُندج يحمل لقب أميرٍ وشاعرٍ وفارسٍ وبوهيميٍّ وحُرٍّ وعربيدٍ وعاشقٍ وشجاع، لكنَّني اليوم أغضُّ عن كلٍّ ألقابه، لأُضيء على العاشق الشجاع فقط، وأُهملُ كذلك الكتابة حول إمارته، كما أنَّني لن أتفوَّه بكلمةٍ عن إرثه الثقيل لأبيه الملك الكنديّ، وما في مملكتهم الممتدَّة بحدودها المترامية على البراري في جزيرة العرب، ولكنَّني لن أتغافل ولو قليلًا عن بوهيميّته وعربداته الفانية في مجلسه ذي الشرفات بأشراف وتقاليد، وقد أتعمَّد أن أغفل عن وسامته وجاذبيَّته، وأتوانى عن ذكر علمه اللغويّ بقوله شِعرًا لا يمكن

تحمُّله، ولن أهتمَّ بطرد والده له من دارة الأشراف بعد قول أبياتٍ من مجون.

سأتحدَّثُ عن حُندج ذي القلب النقيّ البريء من العيب، حُندج الذي أصابته الخفَّة بعد أن حظي بالعشق، فانتابه طيفٌ من الجنون، وشيءٌ من المجون، فأدرك المغامرة وظفر بالقبلات الحارَّة وفاز بالخمر. حُندج الذي كان يتأمَّل الغروب الأحمر كلّ يوم، والذي كان يحتضن النسيم كلَّ فجرٍ ممعنًا بالمخالفة، حتى اعتراه مزاج الورع مستبدلًا إيَّاه بالحزن ساعة العصر، فربح الحياة بعيْنها.

حُندج الذي أحبَّ من بعيدٍ ابنة عمّه فاطمة البيضاء الرشيقةَ الجسد والشبيهةَ بالعنز الصغيرة، حتى دلَّلها القوم بعُنَيْزة التي انحرفت ذات ظهرٍ في سيرها مع صويحباتها في الزقاق مُبتعداتٍ عن سيِّدات العائلة من العمَّات وأميرات الحيّ. لقد شردن نحو البراري القريبة، فلحق بهنَّ حُندج الذي كان مُتيَّمًا بالشعر وبحُبِّ عُنَيْزة. ولنقف قليلًا يا معلِّمتي، ونتساءل: هل أراد حُندج رؤية فاطمة ليأتيه ذلك النهم بقول قصيدة جديدة ليرتِّلها، أم أراد رؤية حبيبته لأنَّها حبيبته وكفى؟

مضى حُندج، ولم يتسنَّ له ركوب فرسه، فامتطى ناقةً قريبةً في غمضة عين، ولحق بهنَّ بين رياح الفيافي، يرى أطيافهنَّ وقد وصلنَ الغديرَ لتبريد أجسادهنَّ، وكأنَّهنَّ متَّفقات

على موعد، وحُندج هاجسه ابنة الكرام فاطمة التي يعشقها بحدِّ إيمانه بالحياة.

نزلت فاطمة من هودجها الأنيق على ظهر جملها الخاصّ المدهَّن بالزعفران، وانحدرت في الغدير البارد مع كلِّ صويحباتها بعد نزع ثيابهنَّ، وصل حُندج فرأى عن بُعدٍ رؤوسهنَّ في الماء تتحرَّك، وسمع أصواتًا ناعمةً لاهيةً بحديثٍ حلوٍ ضاحكٍ في مياهٍ نظيفةٍ قليلة العمق.

لملم حندج ثيابهنَّ وكوَّمها جالسًا بجانب الكومة، متَّكئًا بيده عليها كأميرٍ مُنتصر، وفارسٍ مُنتهز، وعاشقٍ بلا رحمة. كان الوقت عصرًا، حيث يمرح النسيم بين الحركة والسكون، لترصد السماء المشهد، وهو ينادي عليهنَّ بادئًا بالقَسَم، قاطعًا حبال قُبح ما يفعل، وبقرار السادة التي لا رجعة فيها، ولا شيء من الرحمة الدارجة لزعيمٍ مُتمكِّن:

على من تريد ثوبها أن تحضر لأخذه منِّي حيث أجلس، تشير لي على قطعتها فأناولها لها بنفسي، ولا ينوب أحدٌ عن أحد.

كان الاعتراض الناعم حاضرًا بتذمُّرٍ وحنقٍ وكمدٍ، وهنَّ يصرخن به مُصرَّاتٍ على البقاء في ماءٍ يهبط على سطحه النسيم البارد فوق رؤوسهنَّ وجدائلهنَّ المبلَّلة، ليتدفَّق لحن الماء بين حركة أجسادهنَّ ووسوستهنَّ، ومخاطبتهنَّ إيَّاه كلَّ حينٍ بالأمر واستقباح ما يفعل، من شجبٍ واستنكارٍ، ليسير

الوقتُ إلى ما بعد العصر، وهو جالسٌ في رفعة العناد.

خفن من البرد، وفاطمة أمست خرساء من برودة الماء. حينها، خرجت أوَّلهنَّ، وكانت إحدى الجاريات تتمشَّى عاريةً إليه بجرأةٍ واستياء، لتتبع البقيَّة خصالها بموجب المحاكاة، وتأتي كلٌّ واحدةٍ ليناولها ثوبها؛ ويمتدّ في روح حُندج شرف القرار بعد إذعانٍ، ووجاهةٍ زائفةٍ تأتي بعد خضوع.

بقيت فاطمة وحدها في الماء، حتى تفوَّهت بصوتٍ واثق:

لا يرضيك ذلك يا ابن العمّ، يا ابن الكرام.

كان قلبه يصبو إليها، ينظر إليها بعشق، كان متعلِّقًا بها، فكلّ الآمال لها، والرفعة لا معنى لها إلَّا بها، ليُجيبها بصوتٍ حنونٍ وشاعريّ:

الماء يبرد ولا أريدك أن تبردي.

أخذ التعب ينال منها، وعلى الرَّغم من نقاء الماء وقد تحوَّل إلى أذى بعد إطالة، وقالت:

حتى الماء تعب منِّي، لا يرضيك ذلك يا ابن العمّ.

قال: إن خرجتِ لن أمنحكِ ثوبك، إلَّا إذا فعلت ما أمرتكِ به. تأتين من الأمام ثم من الخلف، وهكذا حتى تصلين، ولن أعدل عن قراري.

خرجت فاطمة وفاح عطرُ النسائم حولها، وأصبح حُندج نسيًا منسيًّا، ليصبح في تلك اللحظات النادرة عاشقًا وشاعرًا لا غيرهما، بعد أن لبَّت فاطمة وأتت إليه كما أمرها. ولأنَّها تعرف أنَّه لن يعدل عن قراره، قام لها ولقيامتها، يمنحها بيده رداءها.

صمت الجميع، والمشهد كان لمنظر غروب أحمر يعشقه حُندج. أمست الفتيات جائعاتٍ ومُتعَباتٍ بعد طول وجودهنَّ في الماء، فقرَّر أنَّه آن الأوان أن يتصرَّف كأميرٍ وسيمٍ وكريمٍ لا شائبة في سيرته وسموٍّ مجده وسلالته، فنحر ناقته التي أتى بها، وأوقد النار مع الجاريات ليشوي لحمَ الناقة، وأَكَلْن أمام موقد النار الدافئة، حتى شبعنَ، حينها أتى بركوةٍ صغيرةٍ للخمر، أسقاهنَّ جميعًا منها كشرابٍ بعد طعام.. إلى موعد عودتهنَّ. وقد كان طيلة ذلك الوقت يتأمَّل فاطمته، عُنَيْزَته البيضاء، النقيَّة الصافية البارَّة المعافاة الخالية من العيوب.

ركبت هودجها، فناجاهنَّ:

لقد نحرت ناقتي من أجلكنَّ. وبدأ يطلب من فاطمة أن يصعد في هودجها، لكنَّها رفضت. حينها تحوَّل الأمير الآمر إلى محكوم. توسَّل صديقاتها يتوسَّطنَ عندها، إلى أن وافقت من دون خاطر. في طريق العودة، وكان حُندج متيَّمًا وقلبه مفتون، كان خالصَ الرغبة بالزواج منها، كان هائمًا ومغرمًا وهو يتمايل معها خلف هودجها، وعلى ظهر بعيرها السائر، ليسرق منها كلَّ حينٍ قبلةً على الخدِّ، على الرأس، وعلى

خصلة شعرها التي بدت كأعذاق النخل، يشمُّ شَعرها وثيابها العابقة بعبير البخُور منذ الصباح، يلامس يدها خلسةً فترتبك في استحياءٍ وخجل، حتى باتت تهدِّده، فما يفعله لا يليق بها وهي ابنة الكرام.

وصلوا الديار، وعاد حُندج بمسمَّاه الأميريِّ امرئ القيس، يعيش الصبابة ويمشي كعاشقٍ ليس له مثيل. وتمضي الأيَّام وهو هائمٌ بها، ويبدأ بتلك الاستهلاليَّة التي تتنفَّس في حناجرنا حتى يومنا هذا، منذ أن قالها منذ ألف وخمسمائة عام، شارحًا فيها كلَّ ما جرى، وبادئًا بقوله:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ  بسقط اللِّوى بين الدَّخول فحَوْملْ

أوَّل مُعَلّقَةٍ عربيَّة لم تُقل إلَّا كما قلنا، بعد مغامرةٍ وحَدَثٍ مجنونٍ، وإثمٍ في رؤيته أجساد عذارى أمام الغدير، مع دفء النار وخمرٍ وشغفِ هودج، وولهٍ وقبلاتٍ وروائحَ وشميم لينتهي بعد أيَّام بحزنٍ شفيف، لتتكثَّف مشاعره نحو ابنة عمِّه، ويزوره شيطان الشعر، ويقول مُعلَّقته، ويصف فيها لأوَّل مرَّةٍ في جزيرة العرب الطبيعةَ والمرأةَ كتصريحٍ للغزل وحبّه لها، بسبب غديرٍ واقعٍ في دارة جلجل ومُكره لها. أوَّل قصيدةٍ عربيَّةٍ عبقريَّةٍ قيلت عشقًا لا تكسُّبًا.

دمتِ بخير يا معلِّمتي، وانظري كيف تتكسَّب السينما الأميركيَّة من قصص الاستحمام في الغدران، بعد قرونٍ طويلةٍ من غديرٍ عربيٍّ طفى بأجساد جدَّاتنا!

# 46

تكدَّست اليوميَّات، ولا بدَّ من نزهةٍ مع زوجة عمِّي إلى سوق المربع والخلقان، أتخلَّص بها من دفاتري الممتلئة، وأنجو بنفسي قبل أن يراها أحد. ولن أغفل عن إعادة رسالة معلِّمتي إلى غرفة المكتب بعد تمرَّدٍ وعنادٍ أصاباني لساعاتٍ رافضةً إرجاعها! وها هو يسقط عنادي ويتلاشى مع الوقت والصمت، ونهج استسلامٍ بعد هزيمة. أفعل ذلك عادةً مع من يجرح حزني وذاتي، ولاً بدَّ الآن من التسريع قبل عودة العمِّ من صلاة العشاء من مسجده المسمَّى باسمه، والذي يبعد عنَّا نحو زقاقيْن، وأنا في هدأة عالمي، وشيءٌ من اللامبالاة حيال علم عمِّي بغياب الرسالة أو لا، ولكنَّ فرصةَ دخولي إلى المكتب الآن كفيلةٌ بوضع الرسالة في محلّها.

توغَّلتُ وأشعلت «الضوء»، أُقلِّب أوراق النعناع في

فمي، وثوبي الداغ من دمعة فريد اللاصق بجسمي وبتخريمته، يُصدرُ صوتًا كصوت النبات، وضعت الرسالةَ وظرفَها في مكانها، ولم أبرح بعد أن أصبحتُ مُطمئنَّةً، مُتَّجهةً إلى تلك المخطوطة بشجن. فكيف نكون من سلالاتٍ بحريَّةٍ عريقةٍ ومعروفة، وندع إنجلترا ترث قوانين بحرنا وتكمل عليها؟ كم هذا الأمر مخجل!

# 47

أفتح المخطوط الذي تراكم عليه غبارُ النسيان يومًا بعد يوم، وأقرأه ليغلق نفسه بعد شعور الإرهاق من كلاسيكيَّته الشديدة إزاء ما أقرأه من علومٍ وآدابٍ حديثة، وأرى كيف أنَّ المخطوط هنا يستند علميًّا على لا شيء، ويتحوَّل بعد زمنٍ إلى مخطوطٍ عاطفيٍّ عَرّشَ فينا لمجرَّد إحساسنا بأنَّه نفيسٌ قد تحوَّل إلى غِيَابٍ قيِّم. ومن دون بناءٍ لتلك العلوم البحريَّة الدسمة في هذا المخطوط، أو بتوطينه في علمٍ جديد، ليبقى مصيره مستندًا في هذه الغرفة المغلقة، من أجل حفظ نسيانه فقط.

الوجود وجودنا، ونحن ذواتنا، غير أنَّ بنا رغبةً في الجرْي خلف خلق وجودٍ مختلفٍ عنَّا! يتشجَّع العبث لإعلاء شأن الثرثرة في مجالس الفراغ، والسفر بعيدًا عن علوم الخليج والابتعاد عن تنقيحها أو بالإضافة عليها. تركتْ أيادينا القلم، ونزعت همَّتها الطابوق، ليضيق البحر الواسع على أهله، ويتَّسع

للغرباء. أصواتٌ عاليةٌ ومرحة لرجالٍ تقترب من بعيد. إنَّه عمِّي وصحبه، وكعادته يدعوهم للجلوس في المكتب بعد صلاة العشاء مرَّةً كلَّ بضعة أيَّام، يا لحظِّي السيِّء، لن أستطيع الخروج!

بلمح البصر، وضعت المخطوطَ في مكانه وأطفأتُ النور، وبيدي لامست العتمةَ المطلقة في خطوي وورطتي، وكالضرير أمدُّ كفَّيَّ بحثًا عن مكان السرير الصغير الذي أعرفه، وأختبئ أسفله وأتمدَّد كميِّت، مسدلةً لحافه كستار، مُتجنِّبةً الحركة والحرص على ألَّا يُصدر عن ثوبي صوت الاحتكاك. وقع الأقدام يُخبر بالاقتراب، فينفتح الباب. أصواتٌ تهمهم وتبحث في النور المشتعل عن التكايا للجلوس، ويأخذ الحوار مجراه المَرِح، وأنصت لتلك الأحاديث المسترخية القريبة من السخرية. كانت الأصوات تهبط وتعلو، مع الإطالة بالقول الجادّ والهزل، كنتُ أُنصت بكلِّ ما بي، ولم أعد أراقب صوت أنفاسي من حكايةٍ إلى حكاية. تطغى على هتاف قلبي حكايةُ السيِّدة تايلور لتدخل محور الحديث، مقاومةً نعسي في هامشي المظلم، أُخاصم تثاؤبي بامتداد جلستهم المرحة، ويأتي أحدهم بحكاية جَدٍّ بعيدٍ عليم بالماء والرياح والنجوم، صاحب عشرات السفن المرتحلة مع مئات البحَّارة في هبوبٍ يسبق الزمن بحساب الفلك، ليتأنَّى له الهواء. كنت أستمع إلى خرافاتٍ وحقائقَ، وأقبض على ما أشاء.

# 48

حكايات البحر مزدحمةٌ، وقابلةٌ للقصِّ في يوميَّاتي. يبقى البحر تراثًا يُحكى، تراثًا خاصًّا يختلف عن تاريخ الرعي وإرث الزرع. البحر ماءٌ ملحيٌّ وسليط، ماءٌ يُصارع الريح ويُداهم الساحل، يُخمد النار ويُغرق التربة. ماءٌ يأكل الإنسان فيضطرّ لمهاجمته، فمَن يهجم مَن يا ترى؟ حين درست مادَّة التاريخ في المدرسة، وتكدَّس في الرأس بأنَّه منذ أن هجر الناس الرعي والزرع في جزيرة العرب نحو الجهاد والغزو طمعًا في الغنائم، قادوا صحراءهم إلى المزيد من التصحُّر، سوى بحرنا بمعانيه الأولى، بقي بجاذبيَّته وعلمه المطلق لؤلؤًا وصيدًا وسفرًا وإبحارًا بقيادة النجوم والرياح، حتى عاش البحرُ محافظًا على تراثه قبل الإسلام وبعده.

أُغمض عينيَّ أسفل السرير، وأنظر إلى اللاشيء في نورٍ

خافتٍ ولطيفٍ يُغطِّي شبح جسدي الممشوق، وجنادلُ خشبٍ تثبت السرير وتتوزَّع فوقي، وأحاديثُ شتَّى تأتي وتذهب مع حكاية أعجبتني لجدٍّ من أجدادي. لم أستطع أن أجازف بالوهم والنعس، بقدر الانتباه للإبحار في حكاياتهم، لكنَّ لليل هنا نغمٌ غريبٌ يمنح حلمًا، والحلم أكبر أكذوبةٍ تهاجم جفوني في هذه اللحظة الخطرة وبضوءٍ واهن. غفوت وتحرَّرتِ الألوان من عينيَّ بعد نَعَسٍ جعلني أشاهدني أسكن كلَّ حجرات هذا البيت، في حلمٍ خرجتْ فيه جدَّتي لتقول لي: ربَّيت والدكِ وعمَّك على الورع والتقوى، وخرجتْ زوجة عمِّي خلفها وخيوطها في يدها، لتقول: كلّ من وعدني بالسعادة كان كاذبًا، فيتداعى الزمن في عينيَّ وفي حلمي، أجيبهما: أنا عروس الكتابة.

# 49

صوت أذان الفجر يتداخل مع عويل المجنون، أفقتُ خائفةً لأنَّني بقيت كما أنا مختبئةً أسفل السرير في غرفة المكتب ومُمَدَّدَة بجسدي وقد رحل الجميع. أستجمعُني بقوَّةٍ وأستفيق، وأطمئنّ وأهدأ لعدم اكتشاف عمِّي وصحبه أجمعين وجودي هنا. هَمَمْتُ بالخروج في العتمة الأخيرة للفجر، أفتح الباب الفاضح على مهلٍ في صريف مسامير جذعه مع جَلَبَة ثيابي، أُطلُّ برأسي على الفِناء الكبير وبينونةٌ في نور النجوم بدأت بالأفول، وأفكِّر بمن الذي سأل عنِّي ليلة البارحة وافتقد وجودي!

هيبة الفجر في نسيمه المُصفَّى يأتيني أسفل برج الهواء، والمجنون سعيد الكافر يهتف برسائله الحيويَّة الكاملة للحيّ بذكاءٍ حاضر ومخالفٍ لحركة البشر، فيبدو لي أكثر الأشخاص اكتمالًا، وحين ستر عقله كان ذلك من أجل أن نعطف عليه، لأنَّه ألطف الكائنات وأكثرها صدقًا.

# 50

اختمرت في ذهني أحاديثُ الليلة الماضية لعمِّي وأصحابه، ولم تفلت أبدًا من أثيرهم أسفل السرير عن شركة الهند الشرقيَّة المحتلَّة، فمن احتلَّنا ليس الإنجليز بل شركة لها جيشٌ من جُندٍ وحشدٍ وبحريَّةٍ من سفائن وسلطة عسكريَّة، شركةٌ تُخفي حقائقها الأكثر شرًّا بفروعها من الخليج إلى الهند إلى الصين ومدن شرق آسيا، احتكرت يومًا تجارتنا انتزاعًا لا منافسةً، تجارتنا وموانئنا أخذت يتصارع عليها الإنجليز والهولنديُّون بعد ركلهم للبرتغاليِّين. أدخلوا البضائع من بندرٍ إلى بندرٍ وهم آمنون من وكلائهم. شركةٌ خبيثةٌ انتهت بالمتاجرة بتجارتنا، ليغتني الإنجليز من فرعٍ إلى فرعٍ والرخصة لهم وحدهم، هيمنةٌ مقابل رضوخ، والنتيجة إفلاس تجّارنا اسمًا بعد اسمٍ من سلالة كبار تجَّار مملكة بحر الخليج. قد

قُضي علينا من بضائعنا فوق سفنهم الدخيلة، ولأوَّل مرَّة في تاريخ العالم يخرج المصطلح الجديد وهو تجَّار لندن، لاستئثارهم بكلِّ شيء.

ولادة التاجر الإنجليزيّ كانت في زمن المغالبة بسلوكيَّاتٍ عارية، فلم يعرف أجدادهم يومًا سوى الطاعون والحرب والبرد والحرق، متجاوزين كلَّ ذلك بقناع التاج، وما سُتروا به بعد إلقاء الحياء بمنحهم رخصة الإبحار، إلى الشركات والوكالات فالأرباح، ورخصة الحراسة للبدء بصناعة المدن الجديدة، وبمرافئ للمغانم من حريرٍ صافٍ وقطنٍ دافئ ورُزٍ مُشبعٍ وتوابل إلى واردات الفلفل ومُعدَّات الأفيون. لقد هبط الخليجيّ من فردوس بحره بعد مشاهداته المتعبة على مدد السمسرة والأجرة، وصهيل مدنٍ جديدةٍ لم تلد ولادةً طبيعيَّةً لتخرج بلا حواسّ.

# 51

أُغمض عينيَّ، وبي رغبةٌ أن أكتب بشكلٍ مختلف، أتساءل في سرِّي: إلى متى أظلّ مواظبةً على أسلوبي التقليديّ أقصُّ كما تقصُّ الجدَّات؟ متى أتجاوز المنجز التعبيريّ والرطانة اللغويَّة؟ عليَّ أن أنقد كتابتي وأن لا أرحمني، ثمَّة من يهمس لي:

نصوصكِ لا تتطوَّر يا روزه.

ماذا أفعل يا مَن تهمس لي؟ هل أتخيَّلُني امرأةً إنجليزيَّةً تتولَّى إدارة شركة الهند الشرقيَّة؟ لعلمي أنَّ المرأة في كلِّ العالم اليوم لا تدير سوى منزلها أو حقلٍ صغير. عزمي في الوهم يؤكِّد الربح، فالاستعمار تجارةٌ، والتجارة غنيمةٌ، والغنيمة استملاكٌ بعد قبض، والقبض كسبٌ، والكسب وضعُ اليد ومصادرةٌ فسيطرة، ولا يُعبِّر عن كلِّ ذلك سوى القلم.

أجمل أوهامي أن أُدير كفتاةٍ شركةً بهذا الحجم، والأمر مستحيل، لكنَّني في الوهم أصنع ما أشاء، فلقد كنت استثنائيَّةً في قيادتي سفينتي كربّانةٍ خليجيَّة، وكان انتصارًا لأصعد بالأرباح، مقترحةً إنشاء محطَّاتٍ تجاريَّةٍ جديدةٍ أسميتها شركة الخليج العربيَّة المحترمة، فامتلأت خزائننا من عوائدنا، فلماذا استحوذ الرجالُ وحدهم على علم الربابنة وعلم النجوم طوال تاريخنا البحريّ؟

سوف أُعلن اليوم بأنَّني رُبّانةٌ خليجيَّة.

# 52

من الخليج إلى المضيق غرق الحقُّ وظهر الغموضُ، ومن أجل عيون الأرباح والعملة الجديدة والمواثيق والفِراء والذَّوْق مع طعم التّبغ سأتحوَّل الآن من رُبَّانةٍ خليجيَّةٍ إلى قُبطانة إنجليزيَّة، ولن أسمح بعد كلِّ تلك الإنجازات أن تأتي العائلات الخليجيَّة بقوَّتها البحريَّة وسفنها وبقايا قوَّة مملكة خلجانها الماضية لتسترجع ماءها وتستولي على سفننا الإنجليزيَّة، نحن الشقر. لن أسمح أن يقتلوا جنودنا من بحَّارةٍ وضبَّاطٍ، ويستولوا على المؤن والبضائع المخزونة، فأنا أُدير ببرودٍ هذه الشركة، وأحفظ تاريخها الموجع منذ تأسيسها على يد الوزير القرصان التاجر والقرصان الأكبر عمدة لندن وشيخها، ولن أعترف بجنسيَّة الأصداف الدافئة للخلجان، وسأتَّهمهم بالقرصنة وأكتبها في دفاترنا لنصدِّقها نحن وجميع العالم.

دقَّت زوجة عمِّي بابي، وخرج الوهم من رأسي. رأيتها

تُطلُّ برأسها ووجهها البشوش، وقد كنتُ مُستنزفةً من التخيُّل اليقظ، أفتعل النومَ مُغمضةً عينيَّ. شعرت بها تدخل، وبعد برهة أغلقتْ الباب مُغادرةً، استيقظتُ لأنتزع من أسفل مخدَّتي مفكِّرتي التي بدأت تزدحم، وكم يعزُّ عليَّ ألَّا تنهمر مفرداتي! كنت أنفعل وأفيض رغمًا عنِّي، إن لم أنتج صوتًا خاصًّا أسمعني بداخلي. أحبُّ أن أكتب في صفحةٍ خاليةٍ أشبه بطريقٍ واسعٍ أمضي فيه بشغفٍ بعد مصادري منذ مساء أمس الساخر أسفلَ السرير، وعنوان جديد:

## أسيرة الخليج السيِّدة تايلور

في ظلال ملحمةٍ بحريَّةٍ في مياهٍ هنديَّةٍ هوجاء، خرجتْ من سفينة منيرڤا المخطوفةِ امرأةٌ جميلةٌ وقفتْ على سطح السفينة، ارتجفتْ قلوبُ الرياح لأناقتها ولطفلها الرضيع الباكي في حضنها، واصفرَّ وجه الخريف أكثر مرفرفًا فوق قبَّعتها المحتشمة، لم تكن تلك الشابَّة الفاتنة سوى السيِّدة تايلور زوجة الملازم الإنجليزيّ روبرت تايلور، وهو المعروف لدى شركات الهند الشرقيَّة الإنجليزيَّة وفروعها من الخليج إلى الهند وجزر الهند الشرقيَّة، بأنَّه ملازمٌ سياسيٌّ شابٌّ، صاحبُ مستقبلٍ مُشرقٍ في التجسُّس.

كان خريف عام 1806 مختلفًا، ما إن أصبحت السفينة منيرڤا في يد بحَّارةٍ من عرب الخليج ينتمون إلى كيانهم المستقلّ، بعد أن أصبحت مياه الخليج حوضًا مفتوحًا يطفو

فيه الغرباء، وملعبًا لحرب السفن من كلِّ جهة، حتى فقد الخليج توازنه بالمطاردات والفوضى، فاعترض البحَّارة الخليجيُّون على حربٍ إنجليزيَّةٍ عثمانيَّةٍ في خلجانهم، وحربٍ هولَّنديَّةٍ إنجليزيَّةٍ، وإيرانيَّةٍ دانماركيَّةٍ. ولا جواب حتى بدأوا يُعَبِّرُونَ عن آرائهم بالسيطرة على سفنٍ ذات هُويَّاتٍ مُتخاصمةٍ من خليجهم إلى المحيط المفتوح، فكان الإمساك من نصيب «منيرڤا»، ليقاتلوا جُلَّ من فيها، لكنَّهم صمتوا ارتجالًا حين رأوها تداهمهم مع طفلها، حتى قرَّروا أخذها بأمانة الرجال تجاه النساء كأسيرة حربٍ مع رضيعها إلى سفينتهم، ومعها مساعد القبطان وأحد البحَّارة كأدواتٍ للضغط، وفكرةٍ للاشتغال على المفاوضات، ومُبتغى يتجلَّى في التسوية، علَّها تؤدِّي بنتائجها إلى طرد الإنجليز وبعدها الغرباء من خليجهم، فثمَّة أملٌ بعد رحيل البرتغاليِّين بشركاتهم كقطَّاع طرقٍ ولصوصٍ أثرياء ركلهم الإنجليز ليحلُّوا محلَّهم، وآن أوان دورهم، ويبقى السؤال: ما حكاية هذه السيِّدة الصغيرة يا ترى؟

اختطاف سفينة «منيرڤا» أيقظ الحسرة في قلب الأسكتلنديِّين سادة المستعمرات بأمرٍ من التاج البريطانيّ من بحار الهند إلى الخليج. فطبيعة الأسكتلنديّ حذِرٌ ببخله يقترب من اللامبالاة مُضمرًا سحره في بطء الكلام، مُوضحًا حضوره في برود سلوكه، مُراهنًا بقوَّةٍ على ضعف رقَّة حسِّه، واختفاء اللطف من شخصه. وعلى الرَّغم من ميراثه العميق في عزيمته وقدراته في

الحياة، لكنَّه يبدو للأغراب شخصًا سطحيًّا، وقد وضحتْ تلك الصفات للإنجليز منذ أمدٍ بعيدٍ، وأصبح شاغلهم هو كيف يمكنهم استغلال أخيهم الأسكتلنديّ العتيد الذي لا يمكن أن يكون مُمتعًا في حديثه، كيف لهم أن يكرموه بوضعه في أراضي المستعمرات بين المقاومين والمتعاونين، فهو الأجدر في إدارة شؤون أراضيهم التي لا تغيب عنها الشمس. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّه يفشل كلُّ من يتفاوض مع شخصيَّة الأسكتلنديّ المستثمِر البخيل الراغب في الأملاك والإنتاج ليكسب ولا يخسر، ويُرضي ذلك بخله الاقتصاديّ الصارم في توفير ثروةٍ كبيرةٍ، من دون أن يضعف كمثابرٍ دقيقٍ وعنيفٍ يحمي نفسه بإصلاحه أموال الأوطان وأكلها، وينجح وينال أكثر الأوسمة في تاريخ بلاده.

ولمَّا كانت السيِّدة تايلور الأسيرة من أصول أرمنيَّة، لم يبالِ بها المعتَمَد في الخليج، ولم يكترث بشأنها رئيسُ شركة الهند الشرقيَّة من وكلائها إلى القائمين على المكاتب التجاريَّة بفروعها، بقدر تأسُّفهم على «منيرڤا» السفينة الشراعيَّة المتسلِّحة بكلِّ تلك المدافع التي تمَّ حرقها وإغراقها وسلبها، والحسرة أنَّهم قاموا بدفع مبلغٍ كبيرٍ لصيانتها قبل فترةٍ بسيطة.

نُقِلتْ السيِّدة تايلور بهدوءٍ من مياه الهند إلى الخليج إلى رأس الخيمة، لتعتني سيِّداتها بها وبطفلها، بينما جُنَّ جنون زوجها الملازم مطالبًا باسترجاعها مهما كانت الفِدْية، مُرسِلًا رسائله إلى الجهات الرسميَّة كلّها، وهي جهاتٌ مُتعبةٌ من تصرُّفات البحَّارة الخليجيِّين، وقوَّتهم الدفاعيَّة المتنامية، وقد

قرَّروا حينها إطلاق لقب القراصنة على البحّارة الخليجيِّين، ليصدِّقه الأغراب ويستخدمه الأعداء.

بَكَتْ أساطيل الإنجليز في بحار الخليج حتى الهند خشية الهجوم عليها، ولم يجد زوجها السيِّد تايلور تعاونًا من حكومته؛ فالفدية كبيرةٌ جدًّا، كما أنَّ زوجته ليست إنجليزيَّة الأصل، وتدخل قصَّة الجذور بقسوةٍ في معركة العِرق والمنبت حتى وإن كان زوجها إنجليزيًّا، ولقد علت سطوة التفرقة، وأصبحت في أوجِّها أمام الخسائر اللَّامعقولة للسفن.

البحر هو البحر أينما كان، والسفن ماضيةٌ في دروبٍ قلقةٍ مهما تسلَّحت بالمدافع والعلوم. ولأنَّ القصَّة تبحث عن ومضةٍ ساخرةٍ، نذهب إلى رأس الخيمة حيث مجلسٌ تشارك فيه السيِّدة تايلور مع سيِّدات المقام اللائي عاملنها وطفلها الرضيع كضيفةٍ أخذت تتحدَّث:

لم نتوقَّع لسفينة منيرڤا الشراعيَّة العظيمة أن تسقط بيد أحد، خاصَّةً أنَّها سُمِّيت على آلهة الحكمة الإغريقيَّة «منيرڤا»، وهي البومة الممتلئة بالحظّ.

قابلتها السيِّدات بالقهقهة، فهنَّ أيضًا لديهنَّ سفينةٌ شراعيَّةٌ تُدعى البُوم، في مطابقةٍ لاسم البومة طائر الليل الصاخب، وهي صامدة. وكان الأجدر أن يتمَّ تسمية سفينتكم العظيمة بالبغلة، لربَّما كان حظَّها أكبر، فلا أحد يهاجم البغلة الأليفة!

يصبح الضحك مسيطرًا على الوقت.

لم تأتِ الفدية المنتظرة للملازم من حكومته لتخليص زوجته! بعد أن بلغ عدد سفن قوَّة العرب في الخليج أكثر من ستِّين سفينةً ضخمةً وأعدادًا كبيرةً من السفن الصغيرة تنتصر لأهلها، وآلاف الآلاف من الرجال بانتماءاتٍ المدن الواقعة على خليج خالصة، ليفكِّر مليًّا مُتسائلًا: من تكون زوجته كي يجلبوها؟

أصرَّ ولم ييأس من استرجاعها وطفلهما الرضيع، حتى تكدَّست الرسائل المتبادلة لمدَّة أشهرٍ طويلةٍ بينه وبين السلطات البريطانيَّة وحكومة الهند والمعتَمد وجهاتٍ متورِّطة بلا نهاية، بينما تمضي الفاتنة في ربوع رأس الخيمة، وتحظى باهتمامٍ وهي تتغذّى على حليبٍ طازج لملء صدرها بغية إشباع طِفلها الجميل، وقد تغيَّرت ملابسها؛ وبدل الفساتين الضيِّقة بالمشدَّات في حقيبتها الصغيرة، استبدلتها بثيابٍ «مخوّرة» بألوانها الزاهية، تارةً من قماش «البرشوت»، وتارةً من قماش «بو تفَّاحة» الذي كان يليق بلون بشرتها الزهريَّة، وإن أتت رياح السهام من جهة البرّ وشقَّقت جلد البشرة من قسوتها، وتسابقت رياح العقربيّ بالغبار والأتربة، ومشى الطفل خطواته الأولى، ألبسوها أقمشةً خفيفةً ورخيصةً كقماشتَي «الكلفس وبو بريح» لحرارة الجوّ، ولم تأتِ الفدية.

كان الأسرى في ازدياد، ومشقَّة زوجها في تصاعد عدم تخلِّيه عنها، حتى أتى موسم القطاف واستطاع شراءها بمبلغ ألف دولار، وهو مبلغ الافتداء لها ولرضيعها، ويعدُّ مبلغًا

كبيرًا أصرَّت بريطانيا على استعادته من زوجها الملازم روبرت فيما بعد. وظلَّ الإنجليز يدوِّنون خسائرهم من استيلاء عرب الخليج على سفنهم المصنوعة بجودة في بلدانهم، على سفنهم المصنوعة بأناقةٍ ودقَّةٍ، من «سيلف» بمدافعها المدمّرة، إلى سفينة «كورنتجتون» و«شانون» و«تريمر» و«فلاي» و«هكتور» و«ألبرت» و«نوتيلوس» و«فيوري» المسلَّحة و«ماري» ناقلة الجنود، وحتى الطرَّادات المعظَّمة من «مورنتجون» و«تيرنت» وسفن لا حصر لها غرقت في مياه الخليج والهند، لتبرم إنجلترا معاهدة الصداقة والتحالف الأولى بينها وبين شاه إيران بعد حادثة «منيرفا» والليدي تايلور وزوجها، وتمنح المزيد من الصلاحيَّات لشركة الهند الشرقيَّة البريطانيَّة بحقوق تجاريَّة حصريَّة، وكلَّما استاءوا من العرب في هجماتهم عليهم، سهَّلت إنجلترا لإيران الاستيلاء على جزرهم وقراهم بالتدريج لتقليص حكمهم، من قشم وهنيام إلى قيس ونخيلوه وجاراك وكنج وبا سعيدوه ولنجة... واستمرَّ التسليم انتقامًا بعد كلِّ هجمةٍ من بحَّارة الخليج على سفن الأغراب في خلجانهم، لتتوارى الأمكنة. ومنذ ذلك العام في القرن التاسع عشر بخريفه المرتعد فوق سطح سفينة منيرفا، بدأ الإنجليز صنعَ سيرةٍ جديدةٍ لسفنهم، بتقويتها وصناعتها من الحديد بمجاديفَ لولبيَّة الدفع، وقواربَ بتوربيناتٍ بخاريَّة، وتمضي بهم السنوات إلى المحرِّكات الذكيَّة.. وبقيت سفن الخليج على حالها.

# 53

كان تأثيرُ حديث أصدقاء العمّ عليَّ كبيرًا، حديثٌ عن الخدعة المستمرَّة في عالمنا، طالما ينبوعها الجند والمال في صورة دولةٍ أو مَذهَبٍ أو شركة، كشركة الهند الشرقيَّة التي كانت تشتغل كرأس الأفعى من مقرِّها في بندر عبَّاس إلى انتقال مكاتبها إلى البصرة، بثراءٍ تجاوز الحساب للمدعوّ القرصان المعتَمد ولسائر الفروع، مسيطرين على تجارة تجّار سواحل الخليج والشرق بأكمله، لتتناسل في النفوس رائحة الضفاف والشوق لصدى المواويل البحريَّة، ويعلو صوت النهام من الثغر إلى الأذن. رحل النور واختفت التفاصيل، وانهمر الزمن وتكدَّس فوق الرؤوس دون كتابةٍ، والخلود للكتابة، وبقيت صفحات الخلجان فارغةً حتى استولى عليها الغرباء، بعدما جرى في ماء الخليج في عتمة أوراقٍ كاذبة،

ولم يكتب الخليجيّ عن نفسه بقدر ما تكلَّم، ولا بقاء للكلام وإن صنع من نفسه بحَّارًا وبطلًا في بحره برياحه ونجومه ولآلئه، ومهما زعم من رباطة جأشه في صيد اللآلئ، ومهما أنتج جيشًا مهيبًا من البحَّارة وأبدع الغوَّاصة، ومهما شكَّل سلسلةً من الربابنة والملَّاحين وتجَّار اللؤلؤ والشعراء، وأوجد خرائطَ لنجوم سمائه الشاعريَّة، وتتبَّع مسارات رياحه في تاريخ مائه العميق.. مهما ومهما، ولم يُنتِج كاتبًا حقيقيًّا في تلك القرون السالفة، كي يكتب سيرة بسالته البحريَّة في ملحمةٍ خالدةٍ بلغة روحه المتموِّجة على نغم التوثيق، فمات الخليجيّ بين أقلام المُتطفِّلين والدخلاء، وأصبح وحشًا يخوِّض في حبر خصومه.

# 54

عاودت زوجة عمِّي الدقّ على الباب لتُناشدني أن أرافقها إلى السوق، كانت تلك الدعوة فرصة لمشاهدة فضاء السوق وسماع الأصوات وشمِّ النكهات، وهي فرصةٌ أيضًا للتخلُّص من دفتر يوميَّاتي قبل أن يراها أحد. ارتديت مخورًا من قطن أزرق صافٍ بلون سماء الربيع، ومطرَّزًا بأسيام التلّي الفضِّيَّة حول أكمام اليد ودائرة الرقبة، أمَّا الإبط فواسعٌ مع مخبئيْن لطيفيْن في أسفله. وماذا أيضًا؟ الغشوة أم الوقاية؟ الغشوة بقماشها الساري غِشاءٌ لوجهي، والوقاية ذات القطن الخفيف! يفوز القطن في خاطري. لقد استراح دفتري أسفل إبطي، وانطلقنا إلى رحلة السوق، ومن دكَّان (أمان) الذي يذهب إلى الكويت قبل الشتاء لجلب ستراتٍ جلديَّةٍ ذات أكمامٍ طويلة، إلى دكَّان آخر تقف زوجة عمِّي أمامه تتأمَّل ولا

تشتري، حتى وصولنا إلى طريق العبرة وميدان جمال عبد الناصر ونصبٍ خشبيٍّ جديدٍ لإعلانات السينما الوطنيَّة مقابل مصانع الثلج. ياه.. كم تغيَّرت دُبَيْ!

يأتي صوت (رباع) المسحَّراتي المشهور منذ أسحار رمضان، مُسَحِّرُ كلِّ أهل دُبَيْ في رمضان، أمَّا في بقيَّة شهور السنة فيمشي طويلًا من الشندغة نحو البراحة إلى بوهيل، مثبِّتًا على جسده اسمه المكتوب، فضلًا عن شعاراتٍ معلَّقةٍ ومربوطةٍ على بطنه وظهره توضح تخصُّصه ببيع الفول السودانيّ والنخي والقهوة برفقة حماره المزيَّن خلفه، والصغار يمشون خلفه وبجانبه وهم يتمتَّعون بمشاهدة الألوان والتعاليق، مُحرِّكًا الفناجين مناديًا بأعلى صوته:

«حاااارّ، بعده ما بَرَد».

# 55

قبل صعودنا العبرة قاصدين الشندغة، خطونا نحو الخوْر في المراس حيث مرسى سفينة أبي الضخمة. كلَّما مررت هناك أتذكَّر القول الذي تردَّد على مسمعي، وانفرط تعِبًا حزنًا ليوم استقبال والدي خبرَ وفاة أخي الرضيع الذي لم أره. لم أكن وُلدت حين وصل أبي ذات يومٍ من سفره، وهو المشتاق لطفله البكر، يوم أدرك بسفينته المرسى بعد عبورها المحيط الأزرق والبحر الهنديّ والخليج العربيّ إلى خوْر دُبَيْ، مُتلهِّفًا لرؤية صغيره الذي يحمل اسمه، وسيرثه يومًا ما، كانت معه علبةٌ كرتونيَّةٌ كبيرةٌ وضعها بجانبه من دون كلِّ الهدايا، ولم يُعلِم أحدًا عمَّا بها من حلوان أو ما تحمل من هبة. كان يومًا مزدحمًا بالحركة، ومُحمَّلًا بالتعب وطافحًا بالشوق، وعويل الشاطئ يصعد بنشيج المدِّ والجزر!

# 56

كنتُ قد كتبتُ، وكرَّرتُ حكاية أخي الصغير في يوميَّاتي مرَّاتٍ عدَّة بكلِّ أساليب الخيال، وكأنَّني أبحث عمَّن يقاسمني وشايةَ موت أخي، أو يشاركني حسرتي لأنِّي لم أولد قبله لأحميه. وكتابة العصاب التي تقلقني، وسرّ التخلُّص من قلقٍ مُستمرٍّ على عاطفة أبي الراحل وموت أخي. أكتبها مِرارًا وتكرارًا وكأنَّني رأيت كلَّ شيء، أكتبها وكأنَّها وسيلتي للتفكير بهما، أكتبها تفاديًا لسقوط المعنى في وحل النسيان. فهل أمُرُّ بمرحلة اليقين واللايقين، ويعزّ عليَّ ألَّا تنهمر مفرداتي لهما؟ وكي لا أفيض غضبًا وانفعالًا لأنَّني لم أسمع أبي يصرخ في ذلك اليوم؟ أم لأنَّني لم أرَ أخي يتألَّم؟ فأكتبني مُعَلّقَةً بأصابعي الأنثى المنمَّقة والمحرَّرة لصفحة المنسيِّين مثلي، وأمضي قِدمًا على السطور من دون أن أُخبر أحدًا، لعلِّي أجد في تعبيري أخًا حنونًا وأبًا مُطبطبًا!

# 57

ها أنا أقف باستقامةٍ أمام المرسى من دون حراك، أختبر قدرة خيالي في استدراجِ زمنٍ ما قبل ولادتي بعاميْن. أرى بالوهم هرولة أحدهم نحو السفينة وأبي على سطحها يأمر العمَّال بإنزال البضائع برفقٍ، لم يستطع ذلك الرجل المهرول من فوضاه وفراغه وقلَّة ذوقه أن يدع أبي يذهب إلى بيته بأمان، كان يقول لأبي بصوتٍ مرتفع:

طال عمرك ابنك مات، مااات.

نظر أبي إليه مُشيرًا بإصبعه على صدره، يسأله إن كان يُحدِّثه هو أم غيره، ليُكمل الرجل وهو يصرخ في مشهدٍ متوتِّرٍ بأكمله، مولولًا بحجَّة المواساة:

نعم، لقد توفّي ابنك بعد أن لدغته عقربة، بكى طفلك طوال الليل. لم يعرفوا ما به فنام، أو لعلَّهم اعتقدوا أنَّه نام،

وحين أفاقوا الصباح ليطمئنُّوا عليه، كان قد يبس وتجمَّد.

تدفَّق لحن الماء المالح، ماء الخلجان، وصخب البحَّارة، هنا وهناك، من صنَّاع السفن إلى بائعي الخردوات، حتى انهار أبي وسقط على ركبتيْه، وأخذ يصرخ ويضجُّ ويهتف إلى اللاأحد، ويزحف فوق سطح السفينة نحو صندوقه الكرتونيّ يفرغ ما كان بداخله من أحذيةٍ صغيرة، صغيرةٍ جدًّا، كان قد جمعها ليقدِّمها هدايا لأخي الطفل، يرمي في الخوْر قطعةً بعد قطعة، مستغرقًا في نحيبٍ غريب، حتى جعل كلَّ من في المرفأ يبكي معه.

ثم اجتمع الناس ينظرون إلى هذا الرجل الثريّ صاحب محامل السفن وهو يُجلجل ويضجُّ فوق سفينته، ويرمي بأحذية طفله حتى أخذ يهبط في جسده ويتنهَّد. حينها لحقوا به وحملوه إلى بيته، ووضعوه في فراشه بروحٍ مُتعبةٍ مُغطًّى بالأغطية الثقيلة لمدَّة أسبوع، وهو يردِّد بأسى: يبس وتجمَّد، يبس وتجمَّد..

# 58

تأوَّهتُ في داخلي من أجلك يا أبي. كلُّ ذاكرتي عنك في إبحارك مع الأشرعة البيضاء، كجناح حمامةٍ، فما إن تهبَّ رياح الداعي المتداعية المحرِّكة للأمواج حتى ترفع يدك عاليًا لتتبعها رياح السيهاني المساعِدة على سير سفنك في اتِّجاهٍ واحدٍ وهي تضرب قلب الأشرعة المثبَّتة على الصاري المائل، لا شيء يتحرَّك إلَّا بإشارةٍ من يدك. ردَّدتْ أمِّي طويلًا سيرتك على مسمع طفولتي قبل نومي، كانت تُثري مخيِّلتي وبصيرتي في بحر قصصك، وقد كانت أقرب تلك القصص لقلبي هي قصَّة «المقهويّ» الذي يصبُّ قطراته المُرَّة للقضاء على ملوحة أفواه البحَّارة الفرحين بالمذاق، والذين كانوا على أثر ذلك ينعمون بمزاجٍ يجعلهم رهن الجدف فوق أمواجٍ ناعمةٍ تتهادى بهم كالأطفال بين الصعود والنزول على

سطح يَمٍّ حريريٍّ صاف. كانت أمِّي تبتسم بحبٍّ حين تقصُّ عليَّ عن «المقهويّ»، وهو يغسل الفناجين وقد سقط فنجانٌ من يده في البحر، تلعثم وهو ينظر إلى أبي الجالس في سدَّة المكان، وقد بدأت السفينة تتحرَّك للإبحار منذ مدَّة وأسطوله من خلفه، ليسأله أبي مبتسمًا:

أيُّها «المقهويّ» هل تريد استعاده الفنجان؟

تلعثم يفكِّر بعدم قدرته على الغوص، حيث إنَّه مجرَّد عاملٍ لا شأن له بأعمال البحَّارين أو الغوَّاصين، فهل يريد إضحاك البحَّارة عليه؟ كان ثمَّة نوعٌ من المزاح الثقيل وهزلٌ يندسّ في فراغات الملل.

صمت أبي وأبحر، ووفق خريطة الماء توجَّهت السفن إلى صيد المحار، كان نور الشمس بين الغيوم ينهمر في طرقاتٍ مستقيمةٍ وملوَّنة، ويغوص «الغيص» في القاع لجمع الأصداف، وحبل «اليِدا» في «الدِّيِّين» مُعلَّقٌ برقبته، والخطام في أنفه، و«الزَيْبَن» الثقيل بحَصاة في رجله، يساعده للوصول إلى قاع الهير، وما إن يصل يسحب من رجله الزيبن الثقيل، ويلتقط المحار من هنا وهناك يجمعهم في «الديّن» حتى ينتهي، حينها يسحب السَيْبَ حبل «اليدا» بجرِّه جرَّتيْن ليصعد من قاع البحر مع «الزيبن» الممتلئ، يصعد «الغَيصْ» إلى الأعلى باتِّجاه مجذافٍ مُخصَّصٍ له، متروكٍ على سطح الماء ومربوطٍ بالسفينة. ينتظر الجلَّاس لفتح غشاء الدرّ بأدواتهم

الدقيقة في قياس أحجام تلك اللآلئ ونوعها، ويجري النهار، وتتغيَّر أدوار الرياح من «سيهاني» إلى رياحٍ شرقيَّةٍ وغربيَّةٍ تتشابكان معًا لتهديا البحر لونًا فسفوريًّا يصلح للتأمُّل، وتمسي طرقاتُ الخليج عشوائيَّةً سوى في عيون البحَّارة، أمَّا أبي فيأمر بالعودة، حتى يصل إلى مكانٍ ما، ويأمر فجأةً بتثبيت السفينة، مبتسمًا وهو ينادي «المقهويّ» قائلًا:

يا «المقهويّ»، هل تريد استعادة الفنجان الآن؟

يتلعثم «المقهويّ» ويتضايق متسائلًا في نفسه، لِمَ لا ينسى أمر الفنجان؟ ثم يُجيبه:

لا سيِّدي، فلا أمل لنا بإيجاده بعد تلك المسافات التي قطعناها فوق مياهٍ تُشبه بعضها، كما لا أهمِّيَّة للفنجان.

نادى أبي أحدَهم في أن يقف من فوره على ذلك الطرف بجانب المجذاف الثاني، ويُسقط نفسَه بشكلٍ مستقيم، ويأتي بفنجان القهوة من القاع، لم يزد على أن قالَ سمعًا وطاعة، وغاص بجسده من رأسه نحو الأسفل، ليشهق «المقهويّ» من الفكرة التي ظلَّت في ذهن أبي حتى خروجه، وفي يده الفنجان ذاته، المنقوش بالأخضر مُجسِّدًا هيئة سعف النخلة الشبيه بطقم الفناجين لديْه.

ضحك فرحًا كلٌّ من على سطح المَحْمَل، وأبدوا سرورًا وانبساطًا وفخرًا وإعجابًا بأبي المبتسم بمحبَّة، والفَطِن لملامح الماء بعد خروج فنجانه الغارق نهارًا كاملًا.

# 59

انقطعتْ خيالاتي عن أبي، حين تركنا المرسى بعد إنهاء زوجة عمّي أمرًا مع بائع الرصيف. ومنذ لحظة دخولنا سوق العمارة بفِنائه المربَّع الكبير دون حراسةٍ على الرَّغم من كلِّ المحلَّات المفتوحة بداخله، اتَّجهتُ برفقتها مباشرةً إلى دكَّان الأقمشة وصاحبه المدعوّ «عبد الله بنات» الذي يُصرُّ على ألّا يأخذ أموالًا من السيِّدات اللائي يأخذن ما شئن، مُسجِّلًا في خانة دفتره اسم السيِّدة والمبلغ الذي بذمَّتها، فكلاهما يعرفان الثمن ولا يناقشانه لتوافر الثقة، ثم ينتظر البائع عبد الله أن يأتي أزواج السيِّدات يومًا ليدفعوا له.

وها أنا أفكِّر بي، بين كلّ هذا، كيف لم أعد أُفرِّق بين كوني تعلَّقتُ بالعشق، أم العشق هو من تعلَّق بي؟ وكيف أُصبح وأُمسي بين الاضطراب والهدوء، وبين روحي السرمديَّة

وذهني النازح؟ وكيف أعمل على إنشاء يوميَّاتٍ يُقلقني فراغُ صفحاتها، منتظرةً نقطة البدء لفكرةٍ أو مشهدٍ كهذه المشاهد أمامي، من حراك الأرواح المُحرِّضة للقلم، وشغفٍ أعود به معي. لكنْ يحدث أيضًا أن تتأخَّر الكتابة، ويأخذني غضبٌ عنيفٌ نحو الرسم بعجالةٍ أشبه بطيْش الرسم حتى الإنهاك، لحاجتي إلى الهرب من اللغة الوقورة المستهلكة، والوصول بي إلى كتاباتٍ ساخرة. كنت أتألَّم من فوضاي، ولا أحد يأبه بعلمي لأضيع بي، حتى أُصابَ بأعراض الخيال وشجاعة المفردة وهي تتنفَّذ في جنان النفس. كنت أفرح كالأطفال مبتدئةً اللعب بالكتابة حتى يرتاح رأسي، ومع ذلك لا تقف الحرب الدائرة حولي. ثمَّة بؤسٌ ظلَّ يهمس لي خوفًا ماذا لو رأى أحدهم ما كتبت، ويهدل الحمام الطائر خلف النافذة، ما يجعلني أفكِّر بطريقةٍ أرمي بها دفتري وما به في مياه الخوْر، وكم هي منازلةٌ قاسية بين الشروع في الكتابة والتخلُّص من الكتابة!

# 60

تركتُ زوجة عمِّي تشاهد بأريحيَّتها البطيئة، ومضيتُ أنا متنقِّلةً بين دكَّان الغليون والليمون والمانجا والطحين والرزّ، أعزِّز حضور الألوان والروائح في مخيِّلتي، حتى وجدته أمامي، بحجمه وظلِّه، بطوله وجماله، وعيْنه الوحيدة التي نظرتْ إليَّ منذ النافذة شبه المفتوحة لجدَّتي، تلك الرؤية التي جعلتني تنهيدةً حرَّةً على قارعة الغرام، أعيش أشعار عيْنه، حتى نسيت التهجِّي واللغة، وتعلَّق وجهي به وارتبط من خلف الوقاية، وأرخيتُ ذراعي، وسقط الدفتر. حينها هبط بجذعه الطويل ليحمله، مددت يدي أتناوله، فاستقام به، وأخذ يقلِّب أوراقه حتى تغيَّر ثباته إلى دهشة مُسائلًا:

هل تكتبين؟

لم أجب وأنا أنظر إلى عيْنه الوحيدة الملهمة والمدركة

لحياة روزه. نظرت بعيدًا في وحدةٍ بؤبؤته البُنِّيَّة اللامعة، لأبوح في فلكها من دون صوت: من حقِّي أن أعيش وأحبَّ وأقول وأنتهي.. ومن شأني أن أُبدعك أيُّها الحبُّ ألوانًا ونصوصًا وأعمارًا وطوفانًا في دروب عيْنك الفاتنة، أنتَ وأنا.. هيَّا تعالَ نهرب من الرِّواق الضيِّق ومربَّع السوق لترانا الريح معًا روحًا وحياة، وتهرول تلك الريح خلفنا بفضولٍ، فلا هي تسبقنا ولا نحن نصل!

# 61

قطع سحر النظرات بيننا صوتٌ قريبٌ هو صوت بائع الكتب (عبد الله كتابي) يحمل مكتبته المتنقِّلة على شكل صندوقٍ مفتوحٍ ومعلَّقٍ بصدره، وينقل فيه كتبًا منوَّعةً قادمةً من القاهرة، وبعضها من البصرة، ويلاحقه الناس كلَّ حينٍ يسائلونه عن عناوينَ محدَّدة. كان مبتسمًا وهو يرانا، وما إن سمع صوتًا بعيدًا يناديه لمرافقته بمشوارٍ حتى أغلق صندوقه ووضعه فوق رأسه، وقال لنا قبل خروجه: لعلِّي أُدرك جلسة النقاش والحوارات المفيدة للكبار هناك أمام مطبعة الإمارات في مطبعة دُبَيْ بشارع نايف!

وتباعدنا بدورنا كلحنٍ موسيقيٍّ، ملتفتةً أنا إلى جهة دكَّان البهارات بقربي، أمَّا هو فقد اتَّجه نحو أخته زوجة عمِّي يُلقي عليها التحيَّة، حيث كانت ما تزال واقفةً أمام دكَّان الخيوط.

كان يحمل معه دفتري، حتى غادرها وغادر المكان وهو يمنحني نظرةَ تعلُّقٍ في مدخل المربَّع. لم أكن أتوهَّم ذلك، فقد قرصت إصبعي، وها هو يمضي.

# 62

حين أجلس على عتبة ليوان غرفتي ساعة الغسق، وأضع قدميَّ في فِناء الرمل المشخول والمرشوش بالملح، وأنتظر الليل الساحر في فِناء منزلنا المطلّ على أعتاب الزُهرة والمشتري، أتذكَّر أنَّ هذه الدار جزءٌ من أملاكٍ أملكها ولا أملكها، وكَم هي الثروة تافهة أمام الحُبّ، وأمام لوحة السماء المُغرية بالجلوس أمامها! أسمع المجنون يهتف، وأرى عمِّي يغلق باب غرفة مكتبه وهو ينظر إليَّ من بعيدٍ بنظراتٍ جديدة سكنتْ على إثرها قدماي بعد اهتزازٍ في رمل الفِناء، فهل حدث ذلك لأنَّه شكَّ بتحريكي مكان رسالة مُعلِّمتي، لتنساب الإشاراتُ عليَّ من كلِّ صوب؟ كانت أولى الإشارات هي صوت المجنون سعيد كافر المتشابكة مع هواجسي الهامدة من نظرة عمِّي. استبعدتُ كتابة المجنون

الآن، على الرَّغم من تخمُّر مفرداته الكثيرة في ذهني حيث بدأتْ تنمو قصَّته وتتَّضح، وبتُّ مُقتنعةً بارتدائه لَبوس الجنون، وهذا يخالف أعماقه.

خرج عمِّي من البيت، ورحل المجنون عن ذهني، ونمتْ أسرارٌ في دفتري، وغزتني تساؤلاتُ الحُبّ وطيفُ العاشق.. ومن أنا وشغف الكتابة؟ حتى أقبل الليلُ بجمال رؤيته، وسهرةٌ امتدَّت حتى الصباح.

# 63

منذ أن أصبتُ بداء الحُبِّ، أصبحتُ أحبُّ الاستيقاظ على ضوء الصباح، وعلى صوت زوجة عمِّي التي تهمس لي عند رأسي قبل النهوض، إلَّا في هذا الصباح الذي صارحتني فيه مُبتسمةً وهي تنظر إليَّ بشكلٍ مختلفٍ قائلةً إنَّ لديها خبرًا لا يعرفه أحدٌ سواها. قالت لي إنَّ شقيقها يريد التقدُّم لخطبتي، وإنَّه سيحضر عصر اليوم إلى جدَّتي وعمِّي كي يطلب الزواج بي. حينها تمالكت نفسي، وابتسمت قائلةً:

اللي فيه الخير يصير.

فعلَّقتْ قائلةً: آمين. هيَّا البسي ملابسك لنفطر.

وما إن غادرتْ غرفتي حتى قفزت بجسدي في منتصف الغرفة الواسعة، مُطوّفةً حول نفسي كمروحةٍ خفيفةٍ تمَّ إصلاحها، أرشرش من مرشِّ ماء الورد على شعري النامي

على كتفيَّ، إذن فهو يعشقني! ما أجمل روحي اليوم! يا لهذا العاشق، لقد جعلني أنهض كملاكٍ، وسوف يحملني معه بشجاعته! لا بدَّ من أنَّه أُعجب بما كتبتُ في دفتري، ولعلَّه يوافق على بعثة العام القادم ويُرسلني للدراسة، لعلَّه ولعلَّه..

لبست ثوبي الساري الأبيض البريء كبراءة الأزهار، ونحن في بدايات الهبوب وبرد الهواء؛ وعليَّ الانتقال قريبًا إلى غرفة الشتاء، وقد فضَّلت ثوبي الأبيض على «مخوَّر» أخضر مُطرَّزٍ بثوبٍ شفَّافٍ عشبيٍّ فوقه، ليطمئنَّ عمِّي بأنِّي ما زلت صوفيَّةً صامتةً على الدوام، لا أُجيب إلَّا على قدر السؤال وبصوتٍ وطيء، حيث كنت أعلم أنَّ السكون منقذٌ لي، مستخدمةً صمتي كقبولٍ تارةً، وتارةً كاحتجاج.

# 64

ولجتُ غرفة جدَّتي، أقبِّلها ورائحة عطر العود لا تفارق رأسها. كانت زوجة عمِّي تجلس مع صانعة البراقع الضيفة التي ستشاركنا الغداء على ما يبدو. كانت جلسةٌ بين المُشترية والبائعة، وكم كانت زوجة عمِّي بشوشةً وهي تمنحها الأوامر لتصنع لها أنواعًا من برقعٍ دوَّار زعبيل، وبرقعان بو دمعة، وثلاثة براقع بو عيون على شكل فتحة عينيْها، وبرقعٍ رئيسيٍّ واحدٍ تُزيِّن فيه جبهتها بجنيهاتٍ من الذهب تلبسها إن لبَّت دعوة عرس، وبرقعيْن من المقطف، ليظهر الفم والخدّ، فهي ما زالت سيِّدةً شابَّة، حتى اكتفت من الأوامر.

استنكرت جدَّتي عدم طلبها برقعًا ضيِّقًا يغطِّي الوجه أمام الغرباء، أو برقع المياني الذي تلبسه المرأة متوسِّطة العمر، وترحَّمتْ على والدتي المُحتشمة ببرقعها كما تفعل نساء

الشارقة، حيث كانت تصرُّ على ارتدائه حتى في دُبَيْ، ولم يكن يعجبها برقعُ دوَّار زعبيل أو البرقع العيناوي أو حتى الياسي.

كان مشهدًا غايةً في الإحراج لزوجة عمِّي التي ضاقت ذرعًا، ونحن أمام بائعةٍ تُغطِّي أخبار البيوت في الشندغة. فمنذ مصادرة الحسّ والقبض على عزَّة النفس، ظهر النقاش من دون مراعاةٍ للآخرين، فليس في الإحراج سوى تعبٍ روحيٍّ وغيابٍ في الذوق وهتكٍ لأصل الحُبِّ. ولَكَم أحببتُ ذاتي في هذه الجلسة المرتبكة! أحببتُ اللغة التي أستخدمها وأنا أُلبِسُها لَبوسها الخام، وأكتبها بعد مكابدةٍ لمعرفة نفسي، لأضمن الشفاء من المشاعر المريضة، وقد كانت النتيجة أنَّني أغفر للآخرين على الفوْر، فالكتابة قلبٌ جديد، وكلَّما انغمستُ في التأليف زادتْ قوَّتي، فاللُّغةُ أصلُ الذوق.

# 65

صمتتْ زوجة عمِّي بعد أن غادرتها البهجة بحديثٍ مباشرٍ وجارحٍ، فلا يوجد حتى استعارة للأغراض، ولا الاستئذان لتفتيشِ رسائلي التي استولى عليها عمِّي، لعلمي أنَّ الأمر معيبٌ كالسرقة، لكنْ عليَّ الاعتراف أنا أيضًا بسرقتي، سرقت الكلام من خلف النافذة، وأسفل السرير من أجل يوميَّاتٍ ستُرمى، ولا بدَّ من تأنيبي، ليصبح إيقاع البيت مُقنعًا لواقعي.

وها هي جدَّتي ترحِّب بنساءٍ زائراتٍ أخريات، لكنَّهنَّ اليوم مبكراتٍ، وأخشى أن يعرف العاشق زوج المستقبل عن بيتنا المزدحم اليوم ويؤجِّل قدومه. كانت زوجة عمِّي صامتةً، وعلى ما يبدو إنَّ الأمور لن تمضي كما يجب بعد أن انشغل الخدم بصينيَّة «الفالة»، وبإشراف زوجة عمِّي الحزينة على الرَّغم من الأحاديث المبهجة للنساء اللائي يتحدَّثن عمَّا

يجري الآن من ضمِّ الإمارات كلّها من ستٍّ أو سبعٍ أو تسعٍ، وبناء اتِّحادٍ ودولةٍ كبيرةٍ لنا جميعًا. وثمَّة قراراتٌ محتمَلةٌ قادمةٌ للتوسُّع والحضور بين الأمم، ومشاريعُ وأحاديثُ لا حصر لها.

اتَّجهتُ إلى غرفة المكتب للاطِّلاع سريعًا على «مجلَّة أخبار دبي»، بعددها الجديد، لأعرف إن كان للمرأة دورٌ في الدولة المتَّحدة؟ وهل ستنخرط في الكتابة بشكلٍ علنيّ، سأكون أوَّل الناشرات في مجلَّة أخبار دُبَيْ إن كان الأمرُ صحيحًا. يا لسعادة صمتي وأنا أراقب طبيعتي وقوَّتي المجنونة التي تتجاوزني، وأفكِّر بحكاية الاتِّحاد بحسب دستورٍ خياليٍّ، ليتسلَّق القلم بي وأتسلَّق به، ونرقص رقصة الأسئلة معًا، نسيل أوراقًا وأنفاسًا، نطير في ذلك الخلاء العلْويّ، وننتشر في فراغٍ مفتوحٍ ومقدامٍ ومرتجل، وأجدني من تلقائي على قيد الرقص مع المفردات!

## مُتَّحدة

قال الاتِّحاد:

أنا الاتِّحاد الولود في حضن مُدنٍ مُتصالحةٍ ومُتعبةٍ، لم يكن من أمرهم سوى الحُبّ بعد عقد. واليوم، صنعوا ميلادي وأطلقوا عليَّ اسم الدولة المتَّحدة، لأرى بوضوحٍ كلَّ مَن شاكس تآلفي، وكلَّ مُتلهِّفٍ عليَّ، بينما صعوبة استيعابي

هي صدمة الإحصاء في أبنائي الذين لم يُكملوا مائتي ألف نسمةٍ على امتداد جسدي المُتَّحد، وأرى كيف اختبرتِ الحياة قدرتها على منازلة الموت في ساحلي، شأني شأن الدول المُصابة بالحرارة والاعتداء، وليس ثمَّة ما يصدُّني. فويحٌ للحرارة وعبثها بأرواح الأوَّلين بأشعَّتها القاتلة، وويحٌ للإنجليز والعرب لنسيانهم عقولنا وأبداننا المنهكة في بناء مدرسةٍ أو عيادةٍ قبل عشرات السنين.. أتساءل كرمى لإحساسنا: ألم يرونا؟

أهملَ العالم كلّه ولادتي، حتى حين التفتوا إليَّ أشاروا بإصابعهم قائلين: هؤلاء المتصالحون. مع بعض التحليل للأصل والفصل والمرجع، ثم يمضون راحلين. وَيَحَكُم أيُّها المتغافلون، إنَّ الأرواح هنا كانت تتوجَّع. والآن، وبعد وطنٍ كبيرٍ، وثروةٍ أكبر في باطنه، أكتب أنا الكاتبة روزه رأيي ودستوري:

أوَّلًا: بناء دولةٍ بحجم عددنا كي تمضي بنا على أيدينا إلى أن نزداد عددًا.

ثانيًا: زراعة الأشجار في 90% من مساحة جسد الدولة المتَّحدة، نخل وغاف وشريش نغطِّي به صحراء الإمارات بحدودها الجديدة من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، حتى تكبر غابة الدولة المتَّحدة لصدِّ أمراض الرمال.

ثالثًا: البنية التحتيَّة لكلِّ إمارةٍ تتضمَّن ستَّة طوابق أسفل

الأرض، نخزِّن في طابقٍ مياه الأمطار، وفي الآخر الكهربائيَّات، وطابقٍ للمجاري، وطابقٍ للمواصلات من القطارات، وطابقٍ للمصانعِ والقوَّة، وطابقٍ للتخزين.

رابعًا: المرأة نصف المجتمع، ترث نصف ثروة أهلها، وتساهم بنصف وظائف الدولة المتَّحدة بجانب الرجل في كلِّ ميدان، وتأخذ فرصتها في كلِّ مشروع، وشهادتها في الحقِّ بشهادة رجل.

خامسًا: الاهتمام بالمُصنِّع والمبدع والفنَّان والأديب، ومصمِّمي الرقصات النابعة من رموزنا.

سادسًا: إنشاء الصحافة الموضوعيَّة، حيث لا...

# 66

وضعتُ يدي مباشرةً على صفحتي ما إن دخلتْ زوجة عمِّي غرفتي، وأغلقتُ على إثر قدومها نحوي الدفترَ بأكمله، وقد دَنَتْ مُبتسمةً وهي تحمل في يدها دفتر يوميَّاتي القديمة. وفي شرود اللحظة المدهشة، مددتُ يدي لأخذه، فبادرتني قائلةً:

أخي يُسلِّم عليكِ يا روزه، ويقول لك استمرِّي في الكتابة.

وضعتْ زوجة عمِّي الدفتر في يدي مُبتسمةً، وأكملت حديثها:

علينا أن نُجهِّز «الذِهبة» و«صناديق الحاضر» قريبًا لكما، فموعد العرس تمَّ الاتِّفاق عليه بين الرجال.

سَمعتْ زوجة عمِّي صوت طفلتها، فغادرت إليها مُسرِعةً. وقد قرأتُ على غلاف الدفتر ما كَتَبَه شقيقها بخطٍّ عريضٍ وأنيقٍ بقلم حبرٍ أحمر جافّ «يوميَّات روز».

كان واضحًا ومفهومًا لي إخفاؤه التاء المربوطة توجُّسًا واحتراسًا من أثرها عليَّ، لقد خشيَ أن يسقط الدفتر في يد أحدهم فيرى ما كتبت من هفوات، وأنا روزه التي اسمها لا يتكرَّر في الشندغة ولا خارجها! وقد بدا لي فعله فعل الفرسان الحُماة. كدت أدسُّ وجهي في بطن مخدَّتي لأكركر ضحكًا على شريكٍ مُقبلٍ يوازن بكياسته جنوني، وأقلِّب الصفحات بلهفة الرفرفة البطيئة، لأُلقي نظرةً سريعةً، علَّهُ رمقَ لمحةً، ووضع بجانبها ملاحظةً بعد أن قرأ كلَّ قصصي وهفواتي، لكنْ أصابني العتب عليه لعدم تركه رصدًا أو حتى معاينةً واحدة، وليته فعل! حضنتُ الدفتر بعد أن كان بين يديْه، وبدأتُ أقرأ ما كتبتْ روزه مسبقًا، مع علمي أنَّ أصعب ما يمكن أن يفعله المرء هو أن يقرأ لنفسه، إذ حينها سيصبح الوجه والمرآة معًا، لكنَّني سأقرأ قراءةً جديدةً، أقرأ بعيْنه لا بعينيَّ، بقلبه لا بقلبي، لعلِّي أتوقَّد في حضن دفتري.

# 67

تتوالى الأخبار السعيدة، وألتقي بكلِّ أفراد أسرتي مساءً بغرفة جدَّتي، حيث تبدو بهجة الموافقة الواسعة ساطعةً على طلْق المُحيَّا لكلِّ أفراد البيت، مُرحِّبين بموعد عرسٍ يقترب، لكنْ ومع سحر خبر تأهُّلي المتأخِّر للزواج، بقي بعض ما يخزني في حديث جدَّتي الجافّ، تقرصني به، ثم تبوح بخمشها وجرحها:

«على الرَّغم من وسامته وحضور جماله، ظلَّ بعيْنٍ واحدة. وعلى الرَّغم من أصله الكريم، بات نحس الطلع في موت زوجاته».

التفتتْ إليَّ مباشرةً، وأكملتْ:

«وعلى الرَّغم من جمالك، لكنَّ شَعرك مبتورٌ؛ وعلى الرَّغم من أصلك العريق، كبرتِ على الزواج الذي لا بدَّ منه».

كانت النتيجة واضحةً بعد طرحها لفظًا كلَّ ما في قلبها من توصيفاتٍ تجعلنا مناسبيْن لبعضنا بعضًا كما ترى. لم ألتفت كثيرًا لحديثها أو حديث غيرها، فقد أصبحت لديَّ القدرة على التغافل عن تجاوزاتهم الجارحة. كان قرار الاستعداد للزفاف قد أتى بليْلي ملتهبًا بنجومه، وخلف نافذتي المُخرَّمة بالنقوش لم أعد أرى نورَ الشمس منهزمًا في الكون الدامس، لتتوارى ظلالُ النقش بعد زوالٍ عن أرض غرفتي، وتنمحي الزخرفات الجصِّيَّة الساقطة على سريري، ويغيب معها الحفر والصبُّ والتفريغ والتكوين، ويستبين بعد كلٍّ هذا نورُ كهرباءٍ صناعيٍّ مُعلَّقٍ أمام عينيَّ، يعكس في لوحةٍ جماليَّةٍ جديدةٍ يبرز فيها سحرُ الأيادي الماهرة بين الضوء والظلِّ في وجه غرفتي الهائمة.

# 68

في صباح ملؤه الارتياح، ارتديت ثوب إلِمْزَري بنقشِ بوشاهد الناعم، وبألوانٍ تكاد من الفرح أن تصل في أعدادها أعداد ألوان قوس قزح، مزيِّنةً أذنيَّ وأصابعي بمصوغاتٍ ذهبيَّة، مُتذكِّرةً ملابس النهضة العربيَّة البسيطة، لعلَّ عاشقي يسمح لي يومًا بارتداء أصناف الموضة الدارجة! مزوَّدةً برخاء الإحساس وثروة الشعور بكلِّ مَن حولي، والتفاؤل يطير بي حتى احترقتْ وجنتاي نصرًا، متأسِّفةً على دفاترَ أتلفتها، ونادمةً على التخلُّص من كلِّ ما كتبتُ طوال حياتي القصيرة، ولو لم أفعل لشحنتُ اليوم جُلَّ يوميَّاتي وأعمالي بشخصيَّاتها المتوالية إلى بيت زوجي، ولقرأنا لبعضنا بصوتٍ مسموعٍ نصوصًا مدسوسةً، نجلجلها معًا بصوتيْنا لتُحْدِثَ دوِيًّا؛ فالصوت فعلٌ، والسمع أثرٌ، وكلماتي أذكارٌ كتبتها قربًا وبُعدًا

عن المشافهات. وها هو الغد يأتي، ويصبح صوتي هتافًا بعد صمتٍ، وتتساوى صفحاتي بصفحات المؤلِّفين الرجال، منذ أن حُفِرَتْ أسماؤهم في الصخر، فلم أعد الأخرى بعد تفريقٍ وفرزٍ مِن أولئك الرجال المُتباهين بأقلامهم.

اليوم هو الجمعة، حيث الخدم يُطبِّقون تقاليد تطهير تراب الفِناء المُكرَّم بمصفاة المشخلة، يُنقُّونه من الحشرات والأدران أسفل الشمس، ولا يهدأون إلى أن يتحوَّل التراب إلى رملٍ صافٍ في أعماقه، من دون إغفال الملح ورشِّه فوق الرمال الناعمة، ونهاية طقسٍ أسبوعيٍّ يُغطِّي على باطن ما اقترفوه من دماءٍ بعد ذبائح، وحالة هدوءٍ تعمُّ كلَّ شيء كما في كلِّ أيَّام الجُمَع الساكنة. يومُ قصِّ الأظافر، وشرب الحلول لمن أراد؛ يومُ الوعد والموعود قبل الصلاة، وإعادة حكاية البعث والخلود كموعظةٍ مرويَّةٍ شفهيَّةٍ أسبوعيَّةٍ عن صفات الإنسان المُلازِمة له من سِفر الحياة إلى الرحيل، ويأتي البخُّور والغداء، ويأتي الغروب مع قراءة جدَّتي على ماءٍ في طاسةٍ نحاسيَّةٍ كُتِبَت في جوفها آيةُ الكرسي، لتهبَّ علينا من فمها عاصفةٌ قصيرةٌ صافيةٌ بنيَّة الشفاء. وأحبّ أن أعترف بأنَّني أهوى الفُرجة من الثقوب لهذا الخيال الدائر حول نفسه كالرَّحَى.

# 69

تسبق ليلة الزفاف أيَّامٌ من الاحتفالات تمتدّ منذ أوَّل الصبح إلى نهاية العصر، يتمُّ التحضير لها منذ يوم الجمعة بوصفه يومًا مباركًا، كما أنَّ القمر يكون قد خرج هلالًا صغيرًا وولودًا، والوليد أغنيةٌ من أغاني العادات التليدة، وضوء القمر الأوَّل يبدو مثل شوقٍ صغيرٍ يكبر في قراراتٍ نبدأها لتطول في الحياة. تأخذني قدماي نحو السطح بغريزةٍ غامضةٍ لرؤية رقصاتِ عِرسي الجماعيَّة، وهي فرصةٌ كي أرى طبيعة الخور بامتداده، خلف وارشٍ خشبيٍّ مخرومٍ وممتدٍّ. أجلس مقابلةً الرياح، أتأمَّل الزرقة، ومحاكاة السفنِ المنتهية بأمر التيَّارات المُتحكِّمة في سيرها، أتذكَّر أنَّ الخوْر كان في زمن جدِّي الكبير ضحلًا، وبمدخلٍ صعبٍ لم تُطوِّقه النوارس البيضاء بعد، ولم تكن تجول الطيورُ الرماديَّة لتخفق بين

الضفَّتيْن كما أرى، ولم يعمّق الخوْر باتِّجاه الشمال كما الآن، حيث يتَّسع ويفيض ويرحِّب الماء بالماء الذي يشي بلون الحياة. ثمَّة عالمٌ يبدأ بتجمُّع أبدان العتَّالين القويَّة وهم يحملون البضائع من المرسى إلى رصيف السفن، ولا بدَّ من أنَّ يوميَّاتي التي رميتها اهترأت الآن، وساحت نداوةُ الحبر في أعماق الخوْر.

# 70

من دون شرودٍ عن إحساس اللحظة، أفكِّر بأصل الفكرة ومفاتيح الكتابة، وبحبٍّ يشدُّ لشيءٍ غير مألوف، لا لذلك المعتاد عليه، وسعيًا بتحويل الأمل إلى أدب، وكلمةٍ آتي بها أكتبها فلا تصمت، لطالما راودني شعورٌ غامضٌ بأنَّ الحروف تتمثَّل في رسوم، والكتابةَ ليست سوى امرأةٍ مهرُها الكلمة الحقيقيَّة!

لفح وجهي تيَّارٌ لا يُمازِح، إنَّها رياح «اليولات» تجول في جولاتها نحوي مُصرَّةً على إبعاد أمنيات الكتابة عن رأسي، وهي ككلِّ الرياح تتغيَّر على الدَّوام دون أن نعرف جهة قدومها؛ فهي تارةً تأتي من الشرق وتارةً أخرى من الغرب وأحيانًا تهبُّ من الشمال أو الجنوب وربَّما من النجوم، بتقلُّباتها وجولاتها، لكنَّها تلفت انتباهي بالنظر إلى

بهجة عرسي المجانب لجدار دارنا؛ ورقصاتنا الجماعيَّة أراها كيف تتنوَّع في توحُّدها من عيَّالةٍ ونعش بين نساءٍ ورجال، كانت الحركات كلّها تنتظم في صفوفٍ واحدةٍ ومتشابكة، بالروح المنسجمة ذاتها في تعزيزها ارتباط الأرواح ونظامها في الحياة الجماعيَّة كدرسٍ عُذريٍّ آتٍ من مطلبه. والدرس الممارس لا يتلاشى، يلقِّن الصغار ويثقِّف الأغراب عن معنى التمايل في الشعور الجمعيّ، وصوت النسق المتَّصل بشدِّ الكتف بالكتف، حتى خرج أحدُهم من الصفِّ ليستعرض مهارته في تعابير جسده الرشيق قفزًا ووثبًا، ويبرز إبداعه حتى أُنهك، ليدخل الصفَّ من جديد، ويخرج غيره بمهارةٍ مغايرةٍ وبالروح العالية ذاتها. ومن لم يجد في نفسه نشاطًا أو مهارة الرقص أمام الحياة، يبقى على حاله في الصفِّ المتآلف بين أجساد الملتصقين في طابور المرتِّلين، لتبقى رحلةٌ من رحلاتنا الجماعيَّة، تعكس معايشتنا في رقصاتٍ حقيقتها موعظة.

# 71

أغادرُ من حيث وفدت، وأهبط الوارش، وأعاين النقش العتيق كعادتي، وأنحدر من السُلَّم ببطء العاشقين، وأتلمَّس الجبس الأبيضَ الخشنَ المطحون والمنقوش في لوحةٍ جداريَّةٍ مخرومةٍ، وزهرة اللوتس في دوائرَ بلون الفحم، والمزهريَّاتِ مطبوعةً في الكلس، لتتداخل الأغصانُ وأوراقُ النباتات بجانب طاووسٍ مجسَّدٍ في جصٍّ مفرغ في دليلٍ على شجاعة جدِّي لا جرأته كما ادَّعى البعض؛ فالطاووس صورةٌ منحوتةٌ تُجسِّد روحًا في جدار. كانت مختارات جدِّي الراحل قد جعلت بيته معرضًا للفنِّ المعماريّ بإطلالته على أمواج الخوْر، ولو أنَّه علم أنَّ البيوت ستنسف من بعده، كما يحدث الآن، لما ترك إرثًا. معجبةٌ أنا بك يا جدِّي لعلمي أنَّ هدم الإرث عنوانٌ لشرقنا الموهوم بالغرب، شرقنا الأحمق منذ أن أضاع كتبَ الحكمة. إنَّه شرقٌ مغرورٌ عنيدٌ، لا يسمع.

# 72

لبست قماشًا من نوع «رادفٍ خِله» بلونٍ نارنجيٍّ مُشرقٍ يقترب من الأحمر، وسوار الذهب «المِلْتِفِتْ» لافتٌ بأحجاره الملوَّنة بحجم حبَّات الهيل، وألحقت بيدي الأخرى سوار المعاضد وأساور من حيول بحبَّاتها الصغيرة والبارزة. ولأنَّ شعوري اليوم شعور عروسٍ مُدلَّلة، تذكَّرت أمِّي وعقد الطبلة لأُخرجها من صندوقي الصغير، طبلةٌ مغلقةٌ كصندوقٍ صغيرٍ بداخله ورقةٌ كُتبت عليها آيات الله، ألبستني إيَّاها والدتي في سنِّ السادسة من عمري، ومن خيطها الأحمر القويّ شدَّتها في عنقي، وكأنِّي في عيدٍ، وكان عيدًا أعيشه، فللآن ما زلت الفتاة المترعة بالعطاء، يلامس الحبُّ قلبي، وأفكِّر بيوميَّاتي الأولى، نادمةً على نسفي ما كتبت من أوراق عبر رميها في الخوْر. كانت تهبُّ من برج الهواء ريحُ الغامز كإشارةٍ أشعر

بها تغمزني، قبل أن تملأ نفسها قلب الغرفة، لينقبض قلبي معها، ثم تمرُّ دقائق ويأتي طارشٌ يُبلغنا بما يفجِّر أرواحنا حزنًا. لقد أخبرنا بأنَّ «المعرس» استشهد بعد أن هوى من فوق حصانه الذي بلا سرج. فبالرَّغم من أنَّه كان ممتطيًا حصانه مثل كلِّ مرَّةٍ إلَّا أنَّه سقط، ولم يسقط يومًا سقطةً كهذه التي أودت برأسه المرتطم على حجرٍ بائسٍ في وسط الساحة الخارجيَّة للشندغة، ومات في اللحظة ذاتها.

# 73

عشت أسوأ أسبوعٍ لزمت فيه سرير غرفتي حزنًا على موتٍ فادحٍ لرجلٍ معشوقٍ، تنضج المتونُ الجديدة في صفحات البَوْح، بعد سماعي مفرداتٍ مواسيةٍ لزوجة عمِّي من عمِّي وجدَّتي. وبالمقابل سماعي مواساةً تتكرَّر في مفردة نحسٍ أخذت تلازمني أيَّامًا كأيِّ شؤم بعد سعدٍ، فبرأي جدَّتي المُنقِّبة في مستقبل الفراغ أنَّه قد تبيَّن لها أخيرًا فألُ عُمري، وبأدلَّةٍ وبراهين من دمائي السارية في دماء أمِّي التي أودت عُمر أبي في شبابها، ويأخذ التجريح أيَّامًا في مداه، ونحسٌ يجرح رأسي وشحوبٌ يستحوذ على كلِّي، والمفترض أنَّني الآن عروسٌ أُزفُّ إلى روحٍ رحلت على حين غفلة.

قرَّرت جدَّتي قرارًا لا رجعة فيه وهو أن أقوم بارتداء كلّ ملابسي بشكلٍ مقلوبٍ عليَّ في الأيَّام القادمة، لينقلب النحس

ويرحل بعيدًا عنِّي. وانقلاب الحظِّ برأيها يصبُّ في صالحي، ما يوجب عليَّ اتِّباع تعاليمها، مُستسلمةً لاكتمال العرف بعد أوَّل قمرٍ إلى سبع ليالٍ لأستبدل حزنًا من أوَّل الشهر إلى آخره؛ بينما كانت زوجة عمِّي قابعةً في غرفة الخيوط والخياطة لا تريد رؤيتي، مستغرقةً في حزنٍ كاد أن يقتلها على شقيقها، وأبقى حبيسة العدَّة بعد موته ممنوعةً من الخروج أمام الغرباء، ومن الوقوف مكشوفة الشعر في فِناء بيتي، حتى في المساء أمام القمر بوصفه ذكرًا لا يُسمح لي المثول بين يديْه، مع نصائح بعدم النظر إلى المرآة التي تعكس حزني وجمالي كي لا أتحسَّر. ومنذ هؤلاء وبعد هذا التاريخ اللاهي، شعرتُ كيف بدأتِ الأمنيات تذبل أمامي.

# 74

يتملَّكني التعب وتنطفئ روحي، إذ لم يكن لي من هذا العالم سؤالٌ، فأذبل بداخلي وأمام مرأى العيش، فإن ضحكتُ كان الأمر نذيرًا بحدوث مكروهٍ، وإن غنَّيتُ في الحمَّام دقُّوا عليَّ الباب مذعورين يطلبون الصمت قبل حضور الجنّ، وإن صففت شعري ومشَّطته ووضعت الروائح الطيِّبة فيه استعدادًا للنوم مساء، صرخوا بأنَّني عرضةٌ لمسِّ الجنِّ الذي يخشون أن يعشقني، وإن تثاءبت تاركةً فمي مفتوحًا على مصراعيْه سارعوا بتنبيهي إلى وجوبِ غلْق فمي بوضع كفِّ يدي عليه، كي لا أدع الشيطان يسبح في جوفي. ولقد غنَّيتُ يومًا مع أمِّ كلثوم الصادحة في راديو جدَّتي، وصفَّق الجمهور طربًا، وقد طربتُ معهم وصفَّقتُ، فأكَّدوا بأنَّ الشيطان يصفِّق الآن معي. وعلى أثر ذلك أخذوا يرشُّون

الملحَ في غرفتي كي لا يضرُّني هذا الجنّ إن كان معجبًا بي ويراقبني، وأخذ قولهم وفكرهم يتمدَّد، ويُلازم صوت الآفق الآتي من خارج المنزل إذا نبح الكلب، فقد رأى شيطانًا، وإن نهق الحمار وظهر القطُّ في المساء فالشيطان ملتبسٌ به. ولم ينجُ من التباس الشيطان هذا سوى كائنيْن، الديك الذي إذا صاح فإنَّه قد رأى مَلَكًا، والعنكبوت المبارك. إلَّا ذاكرة الشيطان التي سكنت رأسي، أو لأقل بأنَّهم أسكنوا الشيطان رأسي، يروونه على الدوام ليمتدَّ شحوبي. وكدت أفقد صوتَ العصافير قرب شجرة اللوز على الرَّغم من تغاريدها العالية. حسنًا يا عائلتي، ممَّ يخاف الشيطان إذن؟ لا بدَّ من أن ينتصر عليه كائنٌ ما، حتى اعتقدوا بأنَّه الذئب، إلى أن علمت فيما بعد بأنَّ جدَّتي تُعلِّق قطعةً صغيرةً من جلد الذئب في غرفتها لتحمي بيتها من شرور الشياطين.

# 75

في ظلِّ وجودي المُتعَب، بقيتُ مع جماعات الذباب الهاربة من الفِناء أراقب طيرانها إلى الغرف والمجالس، وكما تعلَّمت من الموروث أن أستدلَّ بالذباب على سقوط المطر المنتظر أو هبوبِ مرتقبِ لرياح بحر الشمال المشهور بسهيلي؛ وبدا مقنعًا لي بأنَّ للذباب تاريخًا وقِيمةً علميَّة، وأتخيَّل كيف توضَّأ بالعلم أسلافُنا القدماء، واجتهدوا ودرسوا هذه الأشكال والأنماط كي يجمعوا حولها آراءهم، إلى أن توصَّلوا بالمراقبة الدقيقة مع الطبيعة والحيوانات والأشجار إلى ما يمكن حدوثه، ويصبح أثرًا منقولًا وبقوَّة... فيا له من ذباب!

أمَّا أن أفتِّش عن غرام أيّ شيء، وفي داخلي أصواتٌ تموت وتحيا، وقد تجاوزتِ الاستعارة، وأنا المتورِّطة في كلِّ

فكرةٍ بحاجةٍ إلى استنطاقٍ ومَعنى، فأين منِّي يوميَّاتي لألوذ بها؟ جلستُ في مجلس جدَّتي كَهرِمَةٍ مُنهزمة، وإذا باليعسوب الجميل بألوانه يدخل الغرفة، ويَسِرُّ جميعُ من حولي ممَّن أكَّدوا بأنَّه المبشِّر بالماء والخير والخبر السارّ. تنصح جدَّتي بعد تأخُّر زواجي عامَيْن آخريْن بضرورة جلب هذا اليعسوب ليحلِّق فوق رأسي لعلَّهم يستبشرون بزواجي، فيا لها من حشرةٍ ذات أبعادٍ وأشواق! ليراودني شعورٌ مؤرِّق عن الشيطان، وكيف يمكن التخلُّص منه بعد أن أسكنوه بيننا غصبًا؛ وكلّ الموروث الذي ورثناه جيلًا بعد جيلٍ بدا ثابتًا على الرَّغم من مظاهر النموِّ والازدهار في الإمارة، مُخترقًا المنازل، لنبقى نحن كما نحن، والنهضة وافدة.

# 76

يهطل المطر، ويصدق حدس الذباب في تراث عِلمٍ منسيّ، وتعود جدَّتي إلى العادات في كتاب رأسها، وتفتحَ فصل الخرافات وتنصح ببقاء ابن عمِّي الطفل وسط الفِناء وتحت المطر، وأن يفتحَ فمه للماء لتبذر فيه الفصاحة، بدلًا من التأتأة واحتباس المفردات في حلقه مستقبلًا حين يجلس بمجالس الكبار.

تخلَّلني شيءٌ من اليأس لما أبدوه من الشؤم تجاهي، وورطةٌ تسلَّلت إلى ذهني بأنَّ شؤمي حقيقةٌ لا باطل كما يتردَّد على مسمعي. لا فائدة من السخط، وعليَّ في مستهلِّ هذا الشعور أن أتعجَّلَ في اللحاق بفكري المتراجع، فكري الذي لا يوصد، فهو بحاجةٍ إلى حمايةٍ بوصفه مفتوحًا على مصراعيْه، وليس كالبيت أو الوطن المطوَّقيْن بالأسوار. الفكر

لا بيت له ولا حدود، لا يدخله كلّ إنسيّ، ولا فرصة لي سوى بالتحليق في آفاقي طوافًا في صراط كلّ مشكوكٍ به، وإن لم أصل.

أشتاق لدفتري وشغبي، ولا أقاوم فتنة الكتابة. فقلمي لم يُخلق ليكون هامشًا والمساحات شاسعة، أكتب وأدافع عنِّي وعن جنسي وحقوقي كامرأةٍ تكتب قصصًا ثمينةً موثَّقة بقوام رشيقٍ بعد اعتراف مَدْرَسَتِي. أكتب ولن أكون كشاعراتنا النبطيّات وما أكثرهنَّ وهنَّ يبحن بأمواجهنَّ شفهيًّا لا على الأوراق، أكتب ولن أرمي بشيءٍ فنحن فوق إرثٍ حيٍّ ما زال ينتظر لنسمعه، وليكن ما يكون حين تأتيني ضرباتٌ صادقةٌ في مفرداتٍ ساحرةٍ أسمح لها بالجَرَيان، ولن أخسر قلمي. ومع استرجاع روحي يصدق اليعسوب أمام عيْن جدَّتي ورأي عمِّي في هروب النحس عنِّي.

# 77

أمام يوميَّاتي، لم أعد أعرف سوى الضغط على القلم، والكتابة عمَّن يسخر من الحقيقة والحبّ. أرى الحبر حُرًّا ومُعزَّزًا، أرفع راية الابتكار في غياب الحرِّيَّة، ولم أعد أعرف الحذر والخوف طالما أنَّني لن أحصد شيئًا بالعودة من جديد إلى رَمْي ما أكتبه، سأقذف بالمكتوب والمقدَّر لأعيش حرِّيَّة التأليف التي سأمارسها دون تَوجُّس.

أستلقي على قطن فراشي، والمساء في آخره، وصوت المجنون لا يهدأ. أعود لكتابة ما يقوله، أستمع إلى صراخه المُدوِّي وهو يبكي مُردِّدًا: حقًّا؟ حقًّا؟ ويهتف لجدرانِ البيوت: مشتاقٌ أيُّها العشق، ما الذي يجري لنا؟ هل اخترتني أم اخترتك؟ إمَّا أن أتركك تقترحني، أو تتركني أقترحك حبًّا على قيد الجنون! يا نخلةً نبتت من بئرٍ برائحة الهال.. أنتِ الشاهدة.

أخذ يبكي، ثم اشتدَّ الصمت. تخيَّلته ساقطًا على فراشه القذر، يرتجف مُنتحبًا بحزنٍ قاده إلى النوم، بعد كلامٍ لا يشي بجنون. كانت شهيَّتي مفتوحةً لمعرفة حكايته، لكنْ كَيف لي أن أعرف؟ لن يُجيبني أفرادُ البيت عنه، وعمَّا به، وكيف أصبحَ؟ لن يُجيبني أحد، على الرَّغم من علمي بأنَّهم يعرفون سرَّه. أتمدَّد بين التكايا، أُنقِّل عينيَّ بين السقف والنافذة، وأخشى أن تجنح الأيَّام بي، وأبقى أستمع للمجنون، يستعبر دَمْعهُ قلبي، ويؤلمني نشيجه كلَّ حين.

# 78

يصرخ المجنون، فَيُبدِّد فكرتي في لحظتها بلحن بكائه العالي:

«اهبطي من النخلة قبل أن تقعي، اهبطي فأنا وحدي».

جمُله اليوم هي الأطول منذ عودتي، وما أغرب أن تتَّضح في مخيِّلتي حكايةٌ واضحةٌ مع تلك المفردات الموثَّقة في صفحتي! ولوهلةٍ ودودةٍ لم أظنّ بجنونه وخبله، بقدر نباهته وذكرى موقفٍ له، وليس الموقف سوى أنثى، مُستبعِدةً فساد عقله بعد تلك المفردات الصادقة التي نطق بها؛ ولأنَّني عرفت العشق وفي قلبي غصَّةٌ منه، فطنت بأنَّه عاشقٌ يغوص في أقصى مهجته، يعالجه الآن بالشرب في كأسٍ بَعْدَ هِجْرَانِها، فهل يعلم المسكين بأنَّ كلَّ هذا الحزن الممتدّ من الفجر إلى المساء مَهلَكة؟

تأتيني أصوات المارَّة كلّ مساء من شباب اللامبالاة

يضايقونه بمنحه الخمر كي يسخروا منه ضاحكين، فأحرص على الاستماع، وهو يشرب ويبكي، ويتذكَّرها. هو العشق لا غيره إن لامس العقل اندلعت فيه ناره، ولا يتبقَّى له حينها قولٌ سوى مخاطبة أنثاه لينال بالجنون لقبًا، مُستأنسًا بكنيته الجديدة التي أطلقت حرِّيَّته، فلا عيب ولا قانون ولا دين يعاقب مجنونًا، رائيًا نفسه متروكًا. مهما وصفه المارَّة النهاريُّون والليليُّون والقمعيُّون بقولهم إنَّه كافرٌ أو منكر، تبقى كلّها من دون حرب، ويغضُّ العقلاء النظر عن شطحاته، فلا ضير أن يعبِّر مجنونٌ عن جنونه في ظلِّ رعايةٍ خفيَّة.

أتحمَّم وأتجمَّل، وأجلس مُسرِّحةً شَعري الرطب والذي طال إلى الكتف. أقرأ شِعرًا، ولا يصمت هذا المُناجي عن مناجاة قلبه خلف جداري، مُؤكِّدًا عدم قدرته على مقاومة فراقها، يناديها بصوتٍ مرتفعٍ: عودي.

عدت إلى يوميَّاتي ينازعني هذا المشغوف، فشدِّيني أيَّتها الكتابة، شدِّيني لأربط سطوري الخالصة والمزيَّفة بعضها ببعض، شدِّيني لأرسم الكلمات بأجنحةٍ ملهوفة اللحظة، وأُطلقَ كلَّ حين صوتًا من ألق، شدِّيني أيَّتها الكتابة لإحضار متنٍ يلتصق بذهني المجنون وصوتي العاقل.

## المجنون سعيد الكافر

تحدَّث الناس طويلًا عن هندسة منزلٍ طينيٍّ لطيفٍ، تأسَّست فيه غرفتان وفِناءٌ صغيرٌ مفتوحٌ على فناءٍ أصغر

خُصِّص لبئر ماءٍ، بجانبه نخلة تمدَّدت في جذعها الطويل حتى بالغت في جموحها، وأصبحت لطولها معروفةً بالعوَّانة في منطقة بوهيل كلّها، يرى قامتها المديدة سكَّان برّ ديرة وبرّ دُبَيْ، بينما يدور ظلُّها كمروحةٍ حول البيت طوال وجود شمس النهار. وقد اشتهرت العوّانة برونقها، فمنحت دُبَيْ سحر الانتباه بفتنتها التي أدهشت الشعراء وألهمتهم، كما أصبحتْ عنوانًا يستدلّ عليها العابرون إلى مقاصدهم؛ ولا أحد يعرف إلى اليوم مَن الذي رمى بتلك النوى في ذلك الفِناء الجانبيّ، ليحاصرها عبير ماء البئر وشذا طيبِهِ لتنمو طولًا بهذا الشكل!

وكم كان سعيد سعيدًا كاسمه، ومحظوظًا بموقع بيته في منطقة بوهيل، حيث الآبار المحفورة هناك تفوح كلّها برائحة الهال، بينما أرضه الصغيرة هذه قد وهبته من الحظّ أكثر ممَّا وهبتْ غيره. فمنذ أن حفر بئره فيها، خرج الماء بأريج ذلك النوع من الهال بطعمٍ حلوٍ ولاذعٍ يقوّي الشهيَّة ويخفِّف حرقة القلب، حتى كاد النَّاس أن يحسدوه.

أمَّا زوجته الشابَّة، وسيِّدة منزله الطينيّ الصغير، فلا تنقصها موهبةُ التعبير عن نفسها تعبيرًا حسنًا منذ أن بلغت من الجمال أقصاه، ذلك الجمال المفعم بالأنوثة، امرأةٌ طليقة في مشيتها كالفرس، بلونها الورديّ المختلط بالسمرة، أنثى يتبرعم في أنفاسها الحبُّ كلّ يوم، ولا تكتفي لتحبَّ الحُبَّ

نفسه. تدلِّل نفسها، وتملأ روحها البشاشة، وتبحث عن السخرية والعُجب والضحك، نظيفةٌ في القيظ والبرد، تستحمّ صباحًا وعصرًا بعد أن تأتي بدِلائها من البئر الفوَّاحة بطقسٍ عبيريٍّ قصير، وتعطير بقطرةٍ من دهن العود مع مَسْحِ عجين الطِّيب على البدن، وأخيرًا تقطف الريحان لتثبيته في أوَّل عقصة شعرها الطويل جدًّا، وربط غصن أزهاره في آخر خصلةٍ عند أسفل الركبة، ليتدلَّى عمدًا قرب القدم.

غصَّة قلبها الوحيدة بأنْ تأخَّر حَمْلُها، لذلك فهي تشجِّع زوجها على المزيد من العمل. فالبيت موجود، والطعام كذلك، وليجمع المال من أجل سفرهما إلى الهند بحثًا عن علاج. وتحت وقع إصرارها، قرَّر زوجها الذهاب إلى مُتنفِّذٍ بسفنه على الرَّغم من أنَّه بلا درايةٍ فيما يخصُّ البحر والإبحار، ولكنَّه من أجل عينيْها وآهاتها وعمرها المرمريّ تحوَّل من بائعٍ في دكَّانٍ إلى بحَّارٍ في محامل الأسفار، يغيب أيَّامًا وأسابيعَ وما إن يعود حتى يرحل من جديد في رحلات طويلةٍ، لكي يزيد الدخل تدريجيًّا آخذًا طريقه إلى صندوق المندوس.

تنقضي الأيَّام والشهور وهي وحيدة، وتأتي أمّها للمبيت في دارها، وتارةً يتعذَّر حضورها لحاجة إخوتها إلى الرعاية. تتناوب أخت زوجها لتقيم لديها أيَّامًا حتى تزوَّجت ورحلت، ويتجاوز مفهومُ الصبر عن زوجها الذي يأتي قليلًا ويذهب

كثيرًا، ويتحوَّل العيش إلى صمتٍ من حنين، ويُجنُّ بها فرط التصبُّر إلى أن وافى يومٌ دقَّ فيه أحدُهم باب بيتها كمرسالٍ من والدها الذي رصد انحدارًا في ماء بئرها الفوَّاح، ورأى الطارق من أمر الماء، وما يجري في البئر من هبوط.

أدخلتْه الفِناء، وكان شابًّا أمرد لافتًا فارع القامة، مفعمًا بالحياة، لم ينظر إليها لما تلزمه به الآداب، دخل حيثما أشارت له بيدها وهي تضع على وجهها الشيلة الشفَّافة والمنقدة بسيام الذهب المخزون منذ يوم عرسها، ولم تمنع نفسها من النظر إليه. توقَّفت في مكانها، بينما واصل هو سيره أمامها نحو الداخل، كانت تتأمَّله بطرف عينيْها، وقد علمت أنَّها اشتاقت لرجلٍ بات ناقصًا في حياتها.

أنهى عمله، وقال لها مطأطئ الرأس ماضيًا نحو الباب:

لا تخشي على البئر، الماء في حالة جيِّدة، فلا سموم ولا شقوق، وما بعد هذا الانخفاض سوى ارتفاعٍ سيعقبه بعد أيَّامٍ قليلة!

ردَّت بصوتٍ خفيضٍ:

سلمْتَ أيُّها الطيِّب.

خرج من الباب، ومنذ ذلك اليوم والأمرد لا يغادر مخيِّلتها. لقد ظلَّت تفكِّر فيه طوال الوقت مدَّة ثلاثة أيَّام تراقب ماء البئر إن كان قد نقص أم ظلَّ على حاله مستقرًّا،

وأصبح الأمرد ملء العيْن لتستريح لها الحكاية، حين رأت وجهها في البئر الصافي والشمس قد رسمت لها من الآهات وجهًا مضيئًا على صفحته، صنعت ضفافًا على طرف البئر بمسافةٍ طافت وصاغت خجلًا شذى الهال، ورحل فجأةً عن قلبها النشوان ذلك الزوج ببحره وملحه.

هرولت إلى غرفتها، لبست العباءة على عجلٍ. وبشعورٍ مؤرّقٍ، مضت سيرًا إلى منزل والدها. هناك رأت أمّها تعجن العجين في الفِناء، ووالدها يثبِّت الأغذية المالحة. جلستْ صامتةً حينًا ومسترسلة في الحديث حينًا آخر، وهي تطلب إرسال ذلك الشابّ ليفحص بئرها من جديد، لأنَّها قد لاحظت أنَّ مستوى الماء لا يكفّ عن الانخفاض.

وعدها والدها بإرساله هذا اليوم. حينها هرولت إلى البيت، وهي على موعدٍ مع الاستحمام والبخور وقطراتٍ من ماء الورد ودِهْن العود. وعند العصر، طُرِقَ الباب، فنادت ولا بدَّ من المناداة كي لا تكشفها ضربات صدرها.

أنا هلال، أتيت لأرى طوْي الماء.

فتحت الباب بأزيزه، فدلف كعادته من دون النظر إليها، وهو يسير من الفِناء إلى الفِناء التالي عبر فتحةٍ بلا باب، وجلس على طرف البئر، لتنشغل هي بالمراقبة والرصد، كأنَّ صبح اليوم قد تنفَّس في عينيْها من جديد، ونوافذها تطير من جدرانها وتمنح أجنحتها للسماء!

قال:

لقد توقَّف الماء عن الانخفاض، ولن ينقص مرَّةً أخرى، فاطمئنِّي بما يخصُّ هذا الأمر.

لم تردّ عليه وهي واقفةٌ بجانب تلك الفتحة بين الفِناء والفِناء، وأخذ يتحدَّث ورأسه في البئر ليزيدها اطمئنانًا، وهي في غمرة صمتها مستغرقةٌ ما جعله يتوتَّر من هذا الصمت. رفع رأسه ينظر إليها ليعرف ما بها، كانت صامتةً ووجهها الورديّ الخمريّ مكشوف له، وشعرها المجدول بحبله ينسدل على صدرها إلى ركبتها، والمشمش والريحان متداخلٌ فيه. انبهر في خجلٍ، وعاد ينظر إلى البئر من جديد، فتعمَّدت الصمت ليتوتَّر الزمن بينهما، ثم أسقطت نفسها على الأرض كالمغمى عليها، فهرول نحوها لا يعرف ماذا يفعل بهذا الحُسن المرتمي أمامه. أخذت تتمتم وهي تقول له لا أعرف ما بي، ناولني شربة ماءٍ من الحِبّ الموجود في غرفتي. هرول إلى غرفتها المفتوحة، فرأى سريرًا بفراشٍ ممتلئ بالقطن الفائح بالبخور تعانقه الروائح بنكهاتٍ لم يعرفها، أمسك بفخَّار الماء، وسجد بقربها كي يرفع رأسها بِليّ كتفيْها بذراعه، حينها سقاها الماء، فتسارعت ضرباتُ قلبه لهذا الجمال وهو يسقيها ببطء. لقد كاد أن يُغشى عليه من الالتباس، بينما كانت هي تنظر إلى عنقه الطويل وأنفه المرتفع وجسده السامق. تشجَّعت وأمسكته من كتفه، تُوهمهُ

محاولةً رفع نفسها لتُسقط جسدها من جديد.

قالت بتعب: أحملني إلى غرفتي قبل أن تذهب، فأنا وحيدةٌ هنا، لا تتركني على الأرض.

قال بحماسٍ وإقدام: لا يمكن ترككِ على الأرض، لا تخشي.

حملها موازنًا بيديْه بين خصرها وظهرها، وسار بها نحو سريرها لتستريح عليه بعد أن أنزلها على مَهَل. ثم وقف أمامها، يريدها أن تبوح له بما تريده منه قبل ذهابه:

«آمريني»

قالت بتعبٍ مُفتَعلٍ: لا تتركني، أخشى أن أموت.

«بعيد الشرّ عنكِ»، ما الذي يؤلمك؟

صمتتْ لبرهةٍ، ثم أمسكت يده وسحبته إلى حضنها، فاستسلم لها دائخًا. ومنذ ذلك البئر أصبحا عاشقيْن تصغي لهما المواسم وهما يَنْسَابَان في بعضهما بين البئر المنتهك والمنتظر، ويتصبَّران بحزنٍ حين يأتي زوجها من البحر، ويصبح هو أكثر غيرةً عليها من زوجها، ويشتدُّ عذابهما بين الأحلام والأمواج، وبين كيفيَّة استمرار العلاقة وبين واقع الزوج الغائب. لقد بات الأمرد عاشقًا في محراب غرفة زوجٍ آخر، ولم يعد يستطيع تركها، ويُجنُّ جنونه إن جاء زوجها، وأخذ يستفهم الأحداث عن نفسه وعمَّا به، وراح يناجي الله

عند الصلاة مُستغرقًا بالدعاء، ولكن دون جدوى. لقد ضجَّ قلبه بها حبًّا وانتظارًا لها وحدها.

عشقه الزهريّ النديّ هاج وماج حتى مادَ في سماء البيت والبئر، وحول نخلة العوانة بطولها دون مردٍّ له أو فكاك، إلى ذلك اليوم الذي أمسكت فيه الرياح بالسفن على الرَّغم من ارتعاش الأشرعة، وأوقفت تلك الأمواج الفجائيَّة عويل البحَّارة، ليقرِّروا العودة. وتسكن فكرة العودة في ذهن الزوج الغائب أبديًّا، ويبدأ بتأسيس نيَّته الجديدة، بأنَّ الأموال التي جمعها تكفيه الآن لرحلة الهند مع زوجته الغالية التي سيصحبها إلى هناك لغرض العلاج، ولم يشأ أن يغامر بحياته أكثر وسط المحيطات الخائنة.

كانت ليلةً ظلماء من أتعس ما عاشته الزوجة، حيث بكت من عشقها البائس، وهي تعرف أنَّ حبيبها كان يحوم حول منزلها كلَّ عصر، ليعود خائبًا شاحبًا بعد أن أفرغ ما بجعبته من شِعرٍ ومضى، وهي تراقبه من النافذة باكيةً، لكنَّه استجمع قواه بعد أن فكَّر ودبَّر خطَّةً مُحكمةً ليعرف قدره عندها، فأخذ يراقب منزلها طويلًا حتى جاء ذلك اليوم الذي خرج فيه زوجها إلى السوق مبتعدًا، فناداها هو عبر النافذة قائلًا:

استمعي إلى ما سأقوله جيِّدًا.

أخذا يتحدَّثان طويلًا، كأنَّهما يفهرسان كتابًا جديدًا لا بدَّ

من أن ينتهيا منه. ومن أجل إيقاظ حبّهما، وكي يظلّا معًا بشكلٍ دائم، اتّفقا أن تبدأ الخطّة بعد يومَيْن وقد نضج الرُّطَبُ في العوانة الفارعة، وآن موعد تنفيذ المخطّط.

قالت لزوجها إنَّها تشتهي الرُّطب وعليه أن يجلبه لها فورًا، وإنَّها لا تعرف سبب كلّ تلك الرغبة الشديدة لأكل الرُّطب! وقد جُنَّ جنون زوجها من السعادة، فهذا التشهِّي من نبوءات الحمل. لقد أصبح يتراءى له طفلٌ يجري في فِناء البيت. أخبرها فرحًا إنَّه سيصعد الآن ليُسقِط لها الثمرات، فتذمَّرت وتدلَّلت في رغبتها، وطلبت منه أن يفرش مئزره على الأرض ويتلقَّى ما تُلقيه هي من الأعلى عليه، لكونها تصعد دائمًا وهي ماهرةٌ في الجَني.

صعدت بدأبٍ ومهارةٍ على الرَّغم من خوفه عليها من علوِّ النخلة، أو أن يصيبها خدشٌ بسبب نتوءات الجذع، أخذت تدفع بجسدها مع الحبل حتى بلغت الموضع الذي تريد، ومن زاوية العذق الممتلئ قطفت بيدها عدَّة حبيبات، ورمتها لزوجها في الأسفل، لكنَّها ما إن نظرت إليه من هامة العلا والذروة، بدا لها صغير الحجم وهو يقف وسط مئزره، ينظر لها ويمدّ يديْه منتظرًا رشقها العطايا، أخذت تولول وتصرخ:

وامصيبتاه فيما أرى.

اندهش زوجها من انفعالها، فما بها؟

استمرَّت في صراخها متَّهمةً إيَّاه بالخيانة مع امرأةٍ تجلس عاريةً فوق مئزره القذر، ويفعلان فعلهما المشين؟

نظر زوجها إلى جسده وأرضه وكلّ ما حوله، مستغربًا ونافيًا لها وجود أحد، لكنَّها أمعنت بصراخها أكثر مسترسلةً في لومه وتقريعه. وكأنَّ فعلها هذا كان يمنحها شعورَ الحرِّيَّة أمام عيْن الكون، ولقد هدَّدت وتوعَّدت زوجها والمرأة الوهم، ثم هبطت سريعًا حتى لامست قدميْها الأرض، ونظرت إليه وهو في حيرته وذهوله، وأخذت تصرخ فيه مسائلةً:

أين هي؟

أخذت تبحث عنها في أرجاء البيت كلّه، تطلُّ على البئر وعلى الغرفتيْن والفِناء الأوَّل، وتعود لتبكي وتشهق مُردِّدةً: أين هي؟ أين هي؟

أقسم لها مؤكِّدًا أنَّه لم يكن هناك أحد، لا أحد سوايَ أنا وحدي، فاستهدي بالله. لكنَّها ظلَّت تؤكِّد أنَّها شاهدت عند ذلك العذق امرأةً كان يعاشرها.. وهكذا، مضت ساعةٌ لتهدأ بعدها، وبعزيمةٍ خلَّاقة صمَّمت على الصعود من جديدٍ لتصل العذق، وقبل جنْيِها الثمر نظرت إلى الأسفل، فأخذت تصرخ مُجدَّدًا!

ثم هبطت وهي في حالة نحيبٍ ونشيج، وقد خشيَ عليها

زوجها من الزلق أو السقوط لسرعتها في الهبوط، ولم يكن يزيد على أن يوصيها بأن تنتبه، وهي كلّها إصرارٌ مجنونٌ للانتقام من امرأةٍ كانت تعاشر زوجها أمامها.

قالت في عويلٍ يقطّع نياط القلب: أين هي؟ يا لكَ من خائنٍ، لقد رأيتكما.

اشتدَّ حزنه عليها وهي المشتعلة في غيرتها، كانت تضرب بيدها على راحتيْه وكتفيْه وتلوِّح في الفراغ، تتوجَّع وتبكي، لتصمت فجأةً، وتقرِّر أن يصعد هو، وهي من ستتلقَّف الثمر على الأرض.

صعد زوجها مذعورًا مُغتمًّا لا يعرف ما يقول، يحدِّث نفسه: لعلَّ ما صدر عنها هو أثرٌ من آثار الحمْل، وهذا ما يجري للنساء الحوامل الملتبسات بالوهم. كان واجمًا ممَّا يجري وهو يواصل صعوده إلى أعلى النخلة الشاهدة العملاقة.

في هذه الأثناء، نادت الأمرد المختبئ خلف باب منزلها، وكما اتَّفقا فتحت له الباب، وقَدِما معًا نحو المئزر الممهَّد على الأرض، لتخلع ثوبها وتنام عليه، وهو بدوره يعاشرها كما اتَّفقا مسبقًا.

وصل زوجها العذق، وأخذ يجني العائد من الأغصان الناعمة. وقبل أن يُسقطها، نظر نحو الأسفل، فانذهل من رؤيتها مع رجلٍ يعاشرها، هاله المشهد، وظلَّ حائرًا ومتعجِّبًا

لهذه الدلالة. وفجأةً، انتفض عقله ليضحك مقهقهًا، صارخًا من مكانه حيث رأسه يلامس العذق وهو يجهش بالبكاء مع وجع الضحك:

حقًّا، إنَّ من يصعد النخيل يرى الناس بعضهم فوق بعضٍ.

حقًّا، إنَّ من يصعد النخيل يرى الناس بعضهم فوق بعضٍ.

هبط ببطءٍ وهو يقهقه ويبكي، وقد عدَّلت زوجته جلستها ولبست ثيابها، وخرج الأمرد العاشق صاحب الخطَّة موقنًا بعد غيرته الشديدة أنَّها تحبّه هو لا زوجها، مقتنعًا بعشقها له وحده.

منذ ذلك اليوم، وأهل منطقة بوهيل والشندغة والراس يشاهدون صاحب العوانة الذي اختلَّ عقله، يسرح بين المنازل، ولا يردِّد سوى كلماتٍ مبهمةٍ «حقًّا»، «مشتاق لها»، «عودي ولن أصعد» «ليتني لم أصعد» «أنا الله في صعودي». ولم يناده الناس منذ تلك الأيَّام سوى بسعيد الكافر والمجنون.

# 79

انتهيتُ من المجنون أخيرًا، فليصرخ الآن ما شاء بعد صبر استماعي إليه ليالي طوالًا. لقد ملأ فراغي اضطراب شوقه في صوتٍ منفيّ، حتى تيقَّنتُ يومًا ما من قراره الخاصّ بالتخلِّي عن لغته وهو بكامل قواه العقليَّة، وأشهد الآن على صواب تمهُّلي الذي لولاه ما كتبت التباسه منذ انكساره تأليفًا وخيالًا، وكأنَّني كنت أفتِّش عن فطنةٍ خرافيَّةٍ للبدء، وتأهُّبٍ في ذروة التراخي، كم أحبُّ حالي في لحظات الشروع، أخلق بهجتي وأنا أكتب بنَفَسٍ واحدٍ، وبانشراحٍ يداوي كلَّ صراعٍ بي. ومن هنا، أبدأ بمراقبتي في الحالتيْن، قبل الكتابة وبعدها، أراقب قبلها كيف تتكثَّف مشاعري شفقةً على الآخرين، منفعلةً من أجلهم حدَّ الأسى، وكأنَّ السطر سوطٌ يمزِّق خيالي لأجلهم، فأصارعني حتى أنسلَّ عن الجميع،

وأهرب بقلمي وحيدةً وقلقةً على ما يشغلني، حتى أفرغ كلَّ ما بهم وبي. ويا لغرابة سعادتي! فما يلي الكتابة هو ارتجاجي وتحوُّلي إلى أنانيَّةٍ مطلقةٍ لا تعنيني بعدها مصائر الآخرين، بل وبشكلٍ صريح يتدفَّق انبهاري بنفسي، مع همس دوافعي المتناقضة بأنَّني كاتبةٌ كاذبةٌ في زعمي أنَّني أؤرِّخ للإنسان، بقدر كشفي إعجابي الغامض بقلمي خلف مفرداتي الملوَّنة من حُمرة الكلمات وصفرتها وخضرتها وزرقتها، أبقى كاتبةً أعالج بالكتابة صداي الصارخ. والحقيقة، أنَّني أكتبني من خلال الآخرين، أكتب صمتي وإهمال مَن هم حولي بقولي، حتى أنتهي وأنام مع الأحلام في مُعجمي الخاصّ بعد مسرَّةٍ، إلى أن يرتدَّ من جديدٍ مللُ الترقُّب، فأعود لصناعة ولادةٍ وخاتمةٍ لآخر يوم في يوميَّاتي بروحي الطائرة المندهشة عبر الكتابة، فأستبين انعكاسي وذاتي بعدها وقبلها.

# 80

أحبُّ الوقوف أمام شجرة اللوزة، أسير على الرمل المشخول حافية القدميْن بإحساس اللامبالي، فلم يعد يهمّني الآن إن هبَّت رياحٌ غربيَّةٌ أو شرقيَّةٌ أو حتى جنوبيَّة؟ لا يهمّني شيءٌ الآن وأنا الممتلئة بي، ولا يهمّني إن أمسك التيَّار بسفينة أبي من الجانب الأيمن أو الأيسر، ولا إن حرَّكها يمينًا ويسارًا، أو حتى إن أوقفها من الأمام. لم أعد أهتمُّ بخريطتي العائليَّة ولا ببوصلتي الفكريَّة، فالأمواج في قلبي الآن فسفوريَّة الدهشة، واللوزة تتمايل أمامي بفضل تيَّارٍ يساعد في هذه اللحظة حتى على رفرفة أطراف ثوبي المصنوع من قماشٍ من النوف الأحمر. وكم أحبُّ مجاملة الريح وهي تنعش رعشة أطرافي. وأنا مع اللوزة بأغصانها المتفرِّعة أعاين اهتزازها وتساقط الأوراق ببطء، أراقبها دون مللٍ! فهل هي

حرَّةٌ كما أتصوَّر، أم أنَّها مستسلمةٌ للريح التي تنفضها؟

أتجوَّل في الفِناء، وأراقب فنون بيتنا ككلِّ الأيَّام من دون ملل، أسحب ظلِّي عند كلِّ ركنٍ، وأتأمَّل ظلال الزخرفات وما ظلَّ فينا من تراثٍ حتى جاء من يحاول اليوم إقحام تراث الآخرين في تراثنا لنتحوَّل إلى فكرةٍ بلهاء، إذ لا مجد للمقلِّدين المنسلخين. أقطف بالنظر جماليَّات الفتحات المُنمَّقة من زخارف في فراغاتٍ مطلَّةٍ على الفِناء الداخليّ، بعاطفةٍ مدروسةٍ في حكايةٍ من قواعدَ تُكتب اليوم لكلِّ من ترك نقشًا، فمقامه مقام الصالحين.

النقوش روح المنازل في الشندغة، تلوح بين دعاماتٍ منحوتةٍ من هلالٍ في جصٍّ بلون الصدف، وبين نوافذ نباتيَّةٍ مزدحمةٍ بنباتاتٍ لا يمكن حصرها. يختزلني هذا التشكيل الفريد في منحى كلِّ قالبٍ تمَّ فرزه من جوهر يدٍ صُنِّفت أوراقًا إسمنتيَّةً خالدة، أين منَّا اليوم هذه الأنامل البارعة والمحنَّكة؟ أناملُ عارفٍ بالزمن المتغيِّر، وبحرفةٍ بسيطةٍ واسعةٍ في معانيها. ليتني أُقبِّلُ هذه الأنامل، بعد أن زحف علينا بناءٌ خالٍ من عبقريَّات التشكيل، بناءٌ ضيِّق الشعور، يضيق بمشاعر ساكنيه!

# 81

لا يهمّ المغترب هدم مبنى تراثيٍّ، مقابل تشييد مبنى جديدٍ متعالٍ ومُتبجِّح، وبلا أيَّة زخرفةٍ فيه تمثِّل ثقافتنا. وقد ظلَّ الهدم مستمرًّا في منطقة الراس، شمل منازل كبرى بنقوشها وأبراجها الهوائيَّة الضخمة، حتى انتبه ذلك الأمير الإنجليزيّ المهتمّ بالرسم كأيِّ نبيلٍ هوايته أن يقلِّد رسم الطبيعة أمامه. كان يأتي زائرًا كلَّ عامٍ، يجلس في شرفة المعتَمَد، يرسم أبراج الهواء في بيوتٍ «الراس» العريقة، يرسمها بألوانٍ من زيتٍ وماء، ولا يزور دُبَيْ إلَّا خلال الفترة بين ديسمبر وفبراير منتظرًا هبوب رياح الثمانين عند الفجر، وهي ترفع الأمواج، مُتمتِّعًا بما يرى من مشاكسة الرياح للماء، وكيف يصنع الهواءَ من الماء ثائرًا أمام عينيْه بعويلٍ يقتحم أذنيْه، لتعكس ألوانه المنازلَ بأبراجها في لوحةٍ مميَّزةٍ،

بعد أن تُرشد الرياح روحه للبدء في الرسم، تمامًا كما يجري لي بعد مشاهداتٍ تدفعني إلى الكتابة بوحيٍ غير قابل للتفسير، وتشكيل وعيٍ غير مباشرٍ، حين نخبرهم بما لديهم وهم في عماء. نحن نكتب ونرسم ونرقص ونعزف بِحُبٍّ سَخيٍّ.

لم يجد الأمير هذا العام أغلب تلك المنازل بعد احتلال البناء الإسمنتيّ في الراس للمنطقة بأسرها، وارتفاع عماراتٍ تجاريَّةٍ برؤوسها اللامنتمية. ثمَّة عماءٌ أصاب المكان، وانتشر مستعرضًا ومتحدِّيًا لشراء كلِّ بيتٍ بهدف الهدم، وقتل فنون الروح من عين الذاكرة، ومن أجل بناء بنايةٍ خالية الملمح يجلس فيها من يأتي بالنقود، ولم ينتفض أحدٌ سوى الأمير الغريب، حين قال:

«في كلِّ عامٍ أزوركم فيه، ألحظ اتِّساع عمليَّات الهدم! لِمَ تهدمون تراثَكم؟ ابنوا العمارات الجديدة في مناطق جديدةٍ، ودعوا هذه القديمة للذاكرة، ماذا أرسم إذن؟»

لقد توقَّف الهدم بعد فوات الأوان، ولم يأتِ الأمير للرسم. فقد أُصبنا بالجنون، ولم نعد نفكِّر مَن نكون بلا معمارنا؟ كلُّ شيءٍ يمضي للزوال.. أنغامنا ونقوش معمارنا، ونصوصنا الشعريَّة. يتكرَّر الإنسان ولا يتكرَّر الإبداع بالروح ذاتها، ونحن اليوم نرى الجميع يتوضَّأ بنا، ولا يُصَلِّي علينا أحد.

# 82

في المساء، انقبض القمر وخسف، واختفى قليلًا من صدر السماء، ما جعل زوجة عمِّي تصيح بصوتٍ عالٍ: لقد بلعه الحوت، لقد بلعه الحوت. ثم سارت مسرعةً من وسط الفِناء إلى المطبخ حاملةً بيدها الرشاد والمنحاز تدقّهما بقوَّةٍ، علَّها تخيف الحوت آكل القمر، وتردِّد مفرداتٍ تعتقد أنَّها تساعد في تحريره وفكِّ حبسه وإعادته من بطنه! حتى تساعد القمر على الهروب لتضيع القافية في لغتي.

وبينما كنتُ مشدوهةً من المشهد، انقلب حسِّي إلى ضحكٍ حتى الثمالة، ضحك أطلقته بصوتي الساخر والمرتفع أمام مسرحيَّةٍ رمزيَّةٍ هزليَّةٍ في فنائنا الواسع، وبدأتُ بالتصفيق الشيطانيّ، لربَّما أجذب الشياطين لتصفِّق معي لهؤلاء الأبطال، القمر الجميل وعدوّه حوتنا السماويّ اللامرئيّ،

والبطل الفارس الهاون مع فرسه الرشاد وبضرباتهما الصاخبة، أصفِّق بحرارةٍ وأضحك، وأنادي بأعلى صوتي:

ـ أين أنت يا توفيق الحكيم من مسرحيَّاتك الواقعيَّة في غمزها، تعال إلى شندغتنا حيث دارنا الملتبسة بنا، أنظر في خيالنا الحيّ. تعال اقتبس.

صمت الجميع، بينما كنت أجلس مُتربِّعةً على طرف الليوان المرتفع أُنقِّل وجهي بين السماء وزوجة عمِّي، أتأمَّل مشهدا ماتعًا، ولم أنتبه أبدًا إلى من كان يشاهدني في الرُّواق، حيث جدَّتي والخدم وعمِّي الذي اكتشف زيف المسابح في يدي. امتعضت زوجة عمِّي، وخاصمتني منذ ذلك اليوم، لتزداد رغبة الجميع في التخلُّص من روزه ووجودها المُقلق بينهم، فَثَمَّ عريسٌ عجوزٌ وصاحب حصنٍ نصفه خرب، جاهزٌ ليتزوَّجني، لقد اجتاز ثلاث إماراتٍ بُعدًا عن إمارتي، وهو جديرٌ بي بعد شهرتي في النحس، وكلّ هذا الاستخفاف منِّي بهم، وفشلي في دروس العادات، من دون أن يستوعبوا بوْح قلمي كيف أُشكِّله في يوميَّاتي قصصًا من وجودنا، وأرسم به دقَّة نوافذنا النباتيَّة والهندسيَّة، ورواقًا بهلاليَّاتٍ فاتنةٍ زائلةٍ مثلي، لكنَّنا أنا وهو تافهان لا نشغل بالهم، ورحم اللهُ ذا العين المُسْمَلة الذي تركني وحيدةً.

# 83

كان القرار الأوَّل والأخير هو التخلُّص من روزه. هذا ما اتَّفقت عليه جدَّتي مع عمِّي وزوجته التي بدأت تتغيَّر علاقتها بي منذ وفاة أخيها الذي اغتال عشقي برحيله. لقد أخذت تهمس لي مرارًا بكثرة عرساني، وهم مرفوضون من عمِّي وجدَّتي من دون أن يبوحوا لي بذلك، فلديَّ ثروةٌ كبيرةٌ توجب مباركتهم هم أوَّلًا إن شعروا بأنَّ الرجل مناسبٌ لا أطماع لديه، وأنَّ نسبه يضيف للأسرة، لذلك أخبروني بقدوم شيخٍ قد طال عمره، وامتدَّ بقوَّة سلالته القديمة المتَّصلة بسلالتي مع جدّنا الأكبر فارس البحر في القرن الثامن عشر، وهو أحد أمراء اللآلئ، وها هو يأتي لإنقاذ فتاةٍ في عزِّ نحسها، وليس من الضروريّ أن يتحقَّق التفاهم بيني وبينه! فمنذ الرفض الأوَّل، أحسست بإحساس الغربة في الدار، بل منذ إجباري على ارتداء ملابسي بشكلٍ مقلوبٍ لمدَّة أسبوعٍ في منزلي، كي يتمَّ تحرير الشرّ.

# 84

في أسبوعٍ مؤسفٍ، عَبَّرتُ عن مشاعري في دفترٍ كاملٍ، عن العمّ الذي يريد ثروةً لي لم أمسسها بقدر معرفتي بها، عبَّرت عنِّي لأنَّني خُلِقتُ أنثى ملتبسةً في عصرٍ ينهض بالتباس، ولأنَّني أتيتُ في عصر المسافات المنسيَّة لأبدو مجرَّدةً من القرار ويُقذَف بي! فهل أكفُّ عن كلِّ ما قرَّرت كي أتغلَّب على طوفاني الدائريّ، فينالني الخنوع؟ أم أنضمُّ إلى صفوفٍ تمَّ العبث بها في يوم التاء العظيم، تاء الأنوثة؟ فحينًا أنا اللؤلؤة، وحينًا بنت الأصول أو الغالية، وكلّ الأسماء المدلَّلة في ثقافتي، مقابل ألَّا أكتب أو أدرس، بل أقبع في صندوق البيت بجانب مندوسي الثقيل.. وها أنا أفعل ذلك، وأنظر إلى مساميره النحاسيَّة بوصفي مفتاحًا ذهبيًّا ينمو بمَهْرٍ ثمين.

نتناول الغداء على أرضيَّة غرفة الجدَّة الواسعة، ونزوح يجتاح روحي عقب موافقتي على الزواج، بعد غربةٍ عشتها في دارةٍ أملك نصفها منذ وفاة أبي، ولا أجد ثروتي، ولا نصف ما يؤول إليَّ كامرأةٍ مسلمةٍ، بل كلّ ما وجدته هو الدلال واللوم والنصيحة بشكلٍ لا مثيل له، مُثقلينَ عليَّ بهدايا الثياب والخدمة من أجل راحتي وتنعُّمي بالجزء الضئيل من ثروة أبي، مع وفرةٍ من الحنان والاهتمام بلا مشاعر. عمِّي المؤرّخ يحتفظ بنعيمي كوصيّ، ويُبقي كلّ شيءٍ مثاليًّا، والحقيقة أنَّ الإرث يشغله، وليت دولة الاتِّحاد أثبتت في دستورها مادَّةً تساوي بيننا نحن النساء مع الرجال إرثًا وقولًا وشهادة، فلم يعد الرجال كما الماضي على حقّ الآصرة، متأسِّفةً على قلمي وأنوثتي، فالعرس آتٍ، آتٍ لأكتبني:

## من الزفاف إلى الحصن

امتلأ أسبوع عرسي بطقوس الاحتفال بي كعروسٍ يُراد إنهاء شؤمها، وتغطية الحديث باستعراضٍ تجهيزيٍّ من ثيابٍ تبدو كالحلم للبعض، تمَّت خياطتها عند أمهر الخيَّاطات تحت إشراف زوجة عمِّي رغمًا عنها، وبأمر من جدَّتي. تمَّ تجهيز كافَّة أنواع الأقمشة بوصفي امرأةً من حرير، إلى أطلس، وبرشوت، وبستان الياهليّ، والسلطانيّ، وبو بريج، وبو فتنيل، وبو تفَّاحة، وقماش بسرة، وخلالة، وبو

الحلاليج، وبو دقّة، وبو الربوع، وبو طاووس، وبو طيرة، وبو غصنة، وبو فرقوة البربير، وبو قفص، وبو كلفس، وبو النوف، والتور، وقماش رادف خلّه، وداغ، ودمعة فريد، ودورة قماش، ورفرف، وساري بألوانه، والسلطانيّ، وشربت، وصالحني، وصفوة، وكفّ السبع، وكيمري، ومدراسي، ومريسي، ومريسي بو الدراهم، والمزري، والململ، وكريب، وقماش نف المطر، وويل، وكاز، وقطن مكّة، وكلّ الألوان من الحشيشي، والكركمي، والحمر يوخ، ودم الغزال، والقرمزيّ، والبرميتيّ، والبوصيّ، والجاكليتيّ، والقهويّ، والحليبيّ، ولارنجيّ، والخاكيّ، والخضر، والنيليّ، وحتى الأملح.

انتهى العرس بعد أيّام، ومنذ ذلك اليوم وأنا أُفرغ كلَّ ما في معدتي ما إن يقترب منّي زوجي المُسنّ الذي تنفر منه نفسي، وأشمئزّ من جلده الملتوي، وأرتعب من سكاكين عظامه. ولقد رحلت معه إلى حصنه الذي رتَّب لي فيه ثلاث غرف ومطبخًا كبيرًا ومجلسيْن، وملحقًا بغرفتيْن للخدم في فِنائه. وأمَّا بقيَّة الغرف، فأهملها لأنَّها بحاجةٍ إلى منفِّذٍ ماليّ، والمال حبيس بُخله.

الحصن مؤامرةٌ شاحبةٌ بعد أن وجدته بأربعين غرفةً بمجالسه وملاحقه المتراكمة، وبحكاياتٍ غير مؤرَّخةٍ، وخمس عشرة غرفة لا يمكن دخولها لأنَّها مهجورةٌ مثلي

كأنثى خرجت أحجارها من جدرانها. أنا والحصن الآن رفيقان نتحدَّث عن زمنٍ لا يعود ولن يعود، كنت كلَّما خرجتُ من الحصن لأشاهده من الخارج رأيته يطلُّ على مرايا جسدي المتعب كأرملةٍ في القريب القادم، فكيف تمَّ استغلالي؟

في ظلِّ تسع غرفٍ أخرى بحكاياتها المتوارثة، وحالاتها البائسة، لم نعد بحاجةٍ لها، وسبع غرفٍ تطلُّ على نخيلٍ لا نهاية لها، تأكل من ثمارها قبائل عدَّةٌ حتى الوصول إلى الجبل. فالسيوح من جهةٍ، والخليج من جهةٍ أخرى، أُطلُّ على مواعيد الزوال في الغرف ذات الإطلالات الأجمل على حدائق من نخل يكفي أن نضع فيها التكايا صيفًا لنرى موسمًا من الناس ينسابون وهم في حالة حصادٍ وصلاةٍ أعمق من التوبة.

أتخيَّل جمال الحصن قديمًا فوق تلَّه الحجريّ، وإن كان عبارةً عن بقايا جسد، في حصنٍ يفصلني عن إمارة أبي بثلاث إمارات، وعن إمارة أمِّي بإمارتيْن، أرى فيه نفسي مع عاشقي ونحن في هبوط على سلّم دائريٍّ داخليٍّ للحصن، أضع بين جوانبه أزهارًا صغيرةً منَ أغصان الشريش الناعمة، بينما يسقيهم هو بقذفه الرذاذ من يده المبلَّلة، أتذكَّره في كلِّ ركنٍ من أركان الحصن ولا أستغفر، فمن مثلي يتضرَّعون لها ولِقَلَقِها!

يضجُّ قلبي من الخيال البعيد وأنا أرى واقع البرجيْن المبنيَّيْن للمراقبة أعلى القلعة، فكلٌّ واحدٍ منهما يواجه الخراب، كما أواجه آهاتٍ تهاجم أنوثتي كلّ حين. إنَّهما يراقبان بعضهما بعضًا، كما هما منذ تاريخٍ لم يصدح إلَّا بالحزن. نحن دائمًا نراقب أنفسنا لنقتصَّ منَّا فَلا نُبدع، ونُعيد قناعاتنا بأنَّنا مُراقَبون لا مَحالة.

طالبتُ زوجي بمكتبةٍ في إحدى الغرف، فأجابني بأنَّ علينا أوَّلًا أن نفكِّر بالماء، فلا ماء في الحصن، حيث يضطر عددٌ من رجاله إلى جلب الماء في السقايات والتنك يوميًّا من بين أفلاج النخيل، ينقلون لنا الماء بجرارٍ ضخمةٍ طوال اليوم، وقد شعرت حينها بأنَّهم يسعون لجعلي أنسى المكتبة.

اقترحت على زوجي المستهلَك جسدًا وروحًا وفكرًا، بما أنَّنا محلّ إقامتنا يطلُّ على كلِّ هذه المياه، فإنَّنا لن نعطش أبدًا، حيث إنَّنا نعطش حين نطيل النظر إلى شحوبنا؛ واقترحت عليه موردًا مائيًّا أسفل هذا البناء التليد حيث قعر التلّة في أسفل القلعة، نبدأ الحفر من الداخل على الرَّغم من صعوبة النقب في الحجر، وكأنَّنا ننبش لحدًا ينتمي إلى الحياة.

بات زوجي المُسنّ يثق بي، وهو العارف بسلالات الحصون والحافظ لتراثها من دون قدرةٍ منه على تحسينها. وبينما يسرد كلّ ما حفظه من تاريخ القلاع، يتنفَّس حسرةً في

نهاية كلِّ حديثٍ، وكأنَّ أمر الحصن عسيرٌ لا يمكن إصلاحه منذ هجمات الغزاة القاسية عليه، وعلى الرَّغم من أنَّ قرنًا قد مرَّ على الهجمات، لكنَّه يرى فيها النهاية. أبرِّر له ليرى كيف تشافت الأشجار حول الحصن ولم تستسلم، وتلك القذيفتان كانتا كفيلتيْن بهدم جزءٍ من الحصن، لكنَّ الطين والحجر لا يستسلمان؟ يصمت وأتذكَّر أنَّني وزوجي لا نشبه بعضنا، وتبقى الحكاية كلّها في أنَّنا نُشبه أرضنا، أحياءً مع ماءٍ حلوٍ أخذ يتدفَّق، فابتعنا خزَّان الماء ووضعناه أعلى سطح القلعة، وهكذا سكن الزلال بيننا وحاصرنا النخل، وليته يحاصرنا إلى الأبد لتنتهي مواعيد جهنَّم، ونُعيد ترميم عقل القلعة، ونفكِّر بتلك الغرف السبع المطلَّة على الجنان، بفتح فتحاتٍ عبر جدرانها كي تطلَّ غرفةٌ على غرفة، وأمام نوافذها الآتية بأنفاس المروج. نأتي برفوفٍ من خشب نملأ كلّ جدرانها وجوانبها من الأعلى إلى الأسفل، ما عدا النوافذ بأعمدتها الحديديَّة الرشيقة المطلَّة على سعف الفردوس، كان ذلك أجمل ما صنعناه كي تنتمي لنا السماء من حيث رَبَضنا وقَعَدنا.

نجهِّز المكتبة ونأتي بكتبٍ لا حصر لها، مجلَّداتٍ فكريَّة، وسِيَرٍ ذاتيَّة، وأشعارٍ أبدع شعراؤها في صياغة الكلمة، وأبجديَّاتٍ تأتي بقلق حتى وصول الحرف المظلوم والقلم الغائب، لنجلس هنا بعد الظلام باستنارة. وها أنا الآن أرى نهايتي، أمتلك قلعةً ومكتبةً ومياهًا عذبةً ولونًا

أخضر يراقبني، وقلبًا متعبًا بعد غياب أبي وأمِّي وخروجي من المدرسة وموت عشقي وقتلي بزواجي. لقد جفَّت الحياة في قلبي، ولا ماء يروي عروقي، لا شيء سوى زوجٍ يسكن جسدي بقرفٍ كلَّما مات في نفسه.

# 85

جُلُّ الأنظمة المنزليَّة تُثير مللي، منذ منازل أهلي الأولى حتى قلعة زوجي، كلّها تخضع للإملاءات والمثاليَّات، منذ دروس اللوم التربويّ إلى الاستغراق في الحال، فكلُّ شيءٍ مكتملٌ ولا حاجة لشيء، ويكفيني بحسب رأيهم تبديل ملابسي كلّ حين، من الحرير إلى المطرَّز اللمَّاع، ومن ذهبٍ إلى ذهب، والعطر بنفحة المسك الفوَّاح. يا لرفاهيَّتي الخاملة ووجهي يستقبل مهبَّ ريح البارح، ودفتر يوميَّاتي يسترخي أسفل مخدَّتي الكسلى بعد إنشاءاتٍ حبريَّةٍ لقصَّة عرسي البعيدة، ولا مقاومة للنعس، وبيني وبين ريح البارح هبوبٌ فاترة خدَّرت وجهي، واستسلم جسدي المتمدِّد والمستلقي أمام نافذةِ النخيل وصحنٍ رطب النغال وقت الضحى.

ولأنَّني ابنة الرياح والنجوم، وابنة الخليج، بتُّ أعرف

معنى ارتخائي بعد ظنٍّ طويلٍ، اختزن أذن طفولتي ومحراب فهمي بأنَّ المناخ الحارّ كان سببًا من أسباب كسلنا الفاتن، حتى عرج بي القلم إلى تفكيك شخصيَّات الرياح في الخلجان. فيا أيَّتها الرياح المرسلة، وفي مقدِّمتهم أنتِ يا ريح البارح الناعمة الخافية ثقل قوَّتك، الآتية من سفر الجوزاء، المخترقة ألف نجمةٍ ونجمة، لقد سلبتِ إرادتي وأَسَرْتِ يقظتي، وأثرتِ استرخائي. لقد غدا كلُّ ما بي خامدًا، بالله عليكِ يا رياح البارح، ألم تكتفي من ضربكِ وجه الأشرعة البيضاء، وتوقيفك الملاحة؟ ألم تكتفي بإيقافكِ أسفارنا البعيدة، وإفساد أرزاقنا في طرقات التعب؟ كفى هبوبًا عليَّ، فقد أَسْقَطِتني في ثقل جسدي.

# 86

أرتخي مغمضةً، وأغرق في التثاؤب وظلام النعس مثقلةَ الرأس والجسد بعد عملٍ شاقّ، أليست الكتابة عملًا؟ ألا نسكب النصوص وكأنَّها تندلق من روحنا الصادقة؟ لأكتُبُني كوميديا عشقٍ يلزمني الكثير من التفسير والتأويل، أسْتَعْرِضُني خيالًا في مسرح الفكاهة معك أيُّها العاشق الشبحيّ، وأراك تضحك لي وأبتسم، فأموت عشقًا على حافَّات عيْنك الوحيدة، وأعدك بأنِّي سوف أَكْتُبُني بجنونٍ وأُدوِّن ما بي كما طلبت. فلا شيء يستحقّ أن يخلِّصني مثلي منِّي، وبعضي يكتبني عواطفَ نامية لأهرب أسفل شجرةٍ أوراقها ميّتةٌ، أجلس بجانبها وأتنفَّس جذعها، ولا يعرفني بعضي، وأبقى صامتةً شامخةً كامرأةٍ على قيد الحبّ.

متعبةٌ حتى في نومي، أرى وجهَ أمِّي الباسم وسطَ ظلامٍ

مُمتدّ. تكبر كلَّما اقتربتْ منِّي. رَفعتْ يدها اليمنى قليلًا، وبنظرة حنونة قالت لي:

ـ انهضي يا روزه، ولا تتأخَّري، هيَّا انهضي، فحقيبتك جاهزةٌ، إنَّهم آتون لأخذك كي تسافري مع بعثتك إلى دمشق.

وفي غفوة السيطرة، قرَّرت الهرب من الحلم، أنقلب على بطني وأُحدِّثني قائلةً: كفِّي أيَّتها الأحلام، دعيني وشأني، لقد انتهت الفرص من حياتي بعد رحيلك يا أمِّي، فكلّ ذلك قد كان حين كنت أكتب على وجنات أوراقٍ شهيَّة، أكتب كلَّ القصص التي باستطاعتي تحويرها. كنتُ امرأةً كاتبة على الرَّغم من خضوعي لمن حولي. كانت شجاعتي مكرَّسةً على الورق فقط، لذا لم أستحقّ الإمساك بالقلم، لكنَّني بتشجيعٍ من الذي أحببت أصبحت كاتبةً يا أمِّي، على الرَّغم من أنَّ ما أكتبه أشبه بغيبوبة، لأنَّني ميِّتةٌ لا محال، ولن يلتفتَ لي أحد، وسوف أحتفظ بشعور الاسترخاء ما بعد الكتابة، كما شعورك يا أمِّي وأنتِ مسترخية في قبرك بعد حياةٍ قصيرة.

نامي يا أمِّي، فمعركة الحياة مُمتعةٌ مع نموِّ الأسئلة، وسوف تتعاقب الأفكار بعد موتي، بعد أن تقبض الحياة روحي يومًا على إحداها وأصبح برفقتك. حينها، سوف أُسقط المفردات التي أملكها كلّها مجرَّدةً تباعًا، وأمضي بها بين سطور الوهم وأراقب نفسي. هل تحكَّمتْ بي الكلماتُ

أم تحكَّمتُ بها؟ حينها ستخرج الفكرة الحرَّة النابعة من روحي المحلِّقة بعد الخلاص من جسدي وأنا ميِّتة، حيث لا مزاجٌ ولا غضب، وأمضي كاتبةً حقيقيَّةً أكتبني بلغةِ اللا لغة في قلب الوجود.

# 87

انتهت جاذبيَّتي جسدًا وروحًا، وأصبحتُ أرى في العتم نجومًا تظهر باهتةً كلَّما حدَّقتُ بها في مراكزها العالية، أراني بلا مركزيَّة، من طفلةٍ فآنسة، ثم سيِّدة بلا إرث، بعد أن كنت الطالبة الأولى في صفوفي المتدرِّجة، وأجملهنَّ وجهًا، وأرشقهنَّ جسدًا، وأحسنهنَّ بلاغةً.. واليوم، لا أجد أمامي سوى جدَّتي تردِّد على مسمعي:

ـ على الفتاة أن تتحرَّك كثيرًا لتقوِّي عضلات فخذها، فتحرَّكي يا روزه لأنَّكِ تأخَّرت على الزواج، تحرَّكي كي تقوِّي الفخذ وتجعليه قادرًا على تحمُّل الولادة.

ثم تردف قائلةً:

ـ اليوم جمعة، وموعد غروب الشمس سيحين بعد قليل، ورأس الدلّة عكس اتِّجاه القِبلة، ومن الجحود أن نمنح ظهرنا لمكَّة.

أسفتُ على أوراقي وأنوثتي متسائلةً بعينيْن مغمضتيْن سؤالًا مُخجلًا دون مرآةٍ: من أنا الآن؟ هل أنتمي من خلال ساحلي ودولتي إلى النهضة الإسلاميَّة المتقدِّمة؟ أم إلى النهضة الإنجليزيَّة التقليديَّة المحافظة المسيطرة عليّ؟ أم إلى عروبةٍ لغويَّةٍ مختلطةٍ ومعجونةٍ بمذاهب وأديان ولغاتٍ شرقيَّةٍ قديمةٍ ولهجاتٍ محكيَّةٍ لا حدود لها؟ هل أنتمي إلى جذورٍ متنوِّعة؟ وهم جميعًا يقرأون ويكتبون بلغةٍ واحدة؟ يا لها من لغةٍ انتصرت لنفسها، واحتفى الجميع بها، وأخذ يكتب بها حتى كارهوها! إنَّها لغةٌ جزع منها الإنجليز والفرنسيُّون، وها هم يختارون استراتيجيَّة التغيّر بالتدريج في نصف قرنٍ آتٍ بعد تساؤلهم: من أين خرجت لنا أمَّة العروبة هذه يا ترى؟ من أين لها أن تخرج بعد التباسنا الطويل مع الإسلام؟ من أين خرجت العروبة وكلّ من يكتب بها يجد قلمه متوَّجًا بزخم ثقافتها الجغرافيَّة الواسعة والناطقة، من أين هبطت علينا أمبراطوريَّة اللغة العربيَّة؟

# 88

تُرَبِّتُ أمِّي على خدَّيَّ ويديَّ، فأفتح عينيَّ لأجدني غافيةً على سريري ببجامتي القطنيَّة بمنزل أمِّي وأخوالي بالخان. نهضتُ من نومٍ عميق، أنظر حولي فما زلت في الشارقة، وأمِّي ما زالت على قيد الحياة لم تمت، وكلّ شيءٍ كما هو. آه.. كم كان الحلم طويلًا! إنَّ عليَّ الاستعداد للسفر مع البعثة. خرجت أمِّي من الغرفة وهي تؤكِّد أنَّهم قادمون، حقيبتي أصبحت جاهزة، ولم يبق سوى ترتيب شعري وهندامي... لتنسلَّ يدي أسفل المخدَّة، ودفتر يوميَّاتي كما هو بقلمه المعلَّق بجلده الكرتونيّ، وبي، موصولٌ بدمي، مخبوءٌ بقلبي. كان دفترًا مطبوعًا بتاريخٍ قديم. ولو كنت في الحلم لقلت: ما الضير من استخدامه؟ فلم تعد السنوات تؤثِّر في حياة فتاةٍ مثلي، أوقاتها من قبل وبعد شبيهةٌ ببعضها. لقد

كان يكفيني أن أحوِّل زمني في ذهني عدمًا منذ أن كانت دقَّات الساعة بلا تاريخ.. وببساطةٍ شديدةٍ، أقلب الصفحة.

لكنَّني الآن أفتح دفتر يوميَّاتي، فآخر حكايةٍ كتبتها كانت بتاريخ أمس. قصَّةٌ قصيرةٌ وهادئة من النوع الذي لا أستغرق طويلًا في كتابتها. كنتُ أحلم إذن، وكنتُ كاتبةً غاضبةً خرساء وناطقة، تتآمر على نصوصها بسرِّيَّةٍ وبمراوغةٍ للمُضيِّ بها بأيِّ شكلٍ، من قلقٍ مُستمرٍّ وعزلٍ ومغامرة، كم كنت مُعذَّبةً وحقيقيَّة! كانت إشارةً ناصعة حين شجَّعني الذي عشقته بالحلم بالاستمرار كتابةً في دفتر حلمي الذي أعاده لي بعد أن عَنْونهُ بـ «يوميَّات روز»، ولم يُمزِّقه. كنتُ كاتبة يوميَّات متمرِّدة ومجهولة، فيا له من حلم، وليتني أعود إليه، وإن عُدْت، سوف أكتب لأُكمل، أكتب لأسدَّ الثقوب، أكتب فوق المزالق دون السقوط، أكتب بشجاعة، ولن أتخلَّص ممَّا كتبت.

**تمَّت**